

الخامس - محمد كامل

سيكولوجية الضمير

153.72:N15sA:c.1

النحاس، محمد كامل

سيكولوجية الضمير

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01001619

153.72:N15sA:C.1

• النحاس، محمد كامل

• سيكولوجية الضمير

MAR 2

X186

153.72

N15sA

~~153.72~~

c.1

~~153.72~~ 66

JAFET LIB.

11 SEP 1990

~~153.72~~

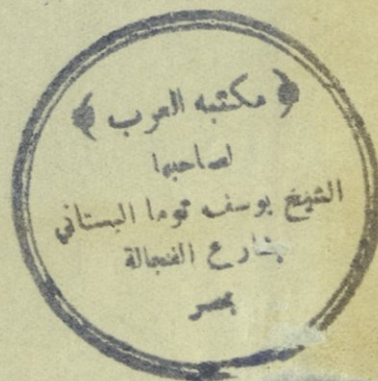
شيكو لوجيز الضهير

153.72
N15sA
C.1

تأليف

محمد كامل النخاس

المراقب بوزارة المعارف
وأستاذ علم النفس بدار المعلمين العالية ببيقداد



الناشر

دار الفكر العربي

طبعة الاعتماد بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا بحث في سيكولوجية الضمير الإنساني : ماهو ؟ وكيف يتكون ؟ وكيف يؤثر في سلوك الإنسان وأخلاقه ، كنت قد أقيمته في أربع محاضرات عامة في قاعة دار المعلمين العالية ببغداد في شهر إبريل الماضي . وقد طلب إلى الكثيرين ممن حضروا هذه المحاضرات أو سمعوا بها أن ينشروا في كتاب . وشجعتي زملائي الأفاضل على ذلك ، وأخص بالذكر منهم صديق الدكتور متى عقرأوى المدير العام للتعليم العالي في وزارة المعارف العراقية ، والدكتور عبد الحميد كاظم عميد دار المعلمين العالية في بغداد .

وقد أردت نشر المحاضرات كما أقيمتها دون تغيير أو تبديل ، اللهم إلا وضعها في صورة كتاب بدلا من صورة محاضرات ، وذكر بعض المصادر التي استعنت بها في القيام بهذا البحث .

وإنى لأرجو أن يكون في نشر هذا البحث الفائدة التي أتوخاها ، وبخاصة في هذه الظروف الاجتماعية العصيبة التي تلت الحرب العالمية ، والتي تترنح فيها المجتمعات الشرقية تحت ضغط من مختلف العوامل والموجات التي تزحف إليها من بقاع كثيرة من العالم .

والله تعالى ولى التوفيق .

القاهرة ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٧

محمد طاهر الحامس

المراقب بوزارة المعارف

وأستاذ علم النفس بدار المعلمين العالية ببغداد

الفهرست

الصفحة	
٨	الباب الأول : سيكولوجية تكوين الضمير
٨	مقدمة
١٠	علم النفس والأخلاق
١٦	تحليل النفس البشرية
٢٥	الضمير الإنساني
٣٣	الباب الثاني : المثل العليا وتكامل الضمير
٣٣	الذات المثلى
٤٢	الصلة بين الذات المثلى والمجتمع
٥١	عدم تكامل الذات المثلى
٥٩	الباب الثالث : عقاب الضمير والجريمة والعقاب
٥٩	العقاب والحاجة إليه
٦٣	طرق التعبير عن الحاجة للعقاب
٧٥	مركب بوليكراتيس
٨٦	الجريمة والعقاب
٩٢	الباب الرابع : هزيمة الضمير وانحلاله
٩٢	مقاومة الذات السفلى للضمير
٩٤	شدة دوافع الذات السفلى
٩٥	أثر التدليل في تكوين الضمير
٩٧	أثر القسوة والشدة في تكوين الضمير
١٠٠	أثر التذبذب في معاملة الطفل
١٠٤	ضعف الضمير
١٠٦	جعل الذات العليا مجرمة
١٠٨	تحالف بين الذات السفلى والذات العليا
١٠٩	الضمير المجرم

الباب الأول

سيكولوجية تكوين الضمير

مقدمة :

ليس من شك في أن الحياة الاجتماعية في كثير من بقاع العالم ، حياة كثيفة مخزنة . فلقد صب الإنسان نيران الويلات على رأسه ، وها هو يقف الآن كالصيد في الفخ يدور فيه حائراً متحيراً ، ثم يقدح زناد فكره للتخلص منه وإطلاق سراح روحه الحبيسة المسكبة ، ولكن الفخ معقد التعقيد كله . . . واحسرتاه للإنسان الغرور !! لقد نسج خيوطه من قبل بنفسه ، ثم ها هو اليوم لا يدرك ما نسج في أمسه . أغراه ما صنع ، وهاله ما أبدع فشرّد لبه وجمّح قلبه ، وإذا بالخيوط تتشابك حوله ، فتزيد هوله ، وإذا به محصور محسور ، يدب القلق في أوصاله ، ويغمره الغيظ في فضاله ، فيزداد موقفه حرجاً ، ويعمى عن أن يجد في قفصه مخرجاً .

ماذا دهم الإنسان ؟ أكلما زاد عقله نوراً ، خطف يبصره النور ، فترنح في الحياة وتخبط واضطرب ؟ وكلما زاد النور لآلاء عمى عن الطريق القويم ، وضل عن الصراط المستقيم ، وزلت قدماءه ، واختل توازنه في الحياة ؟ لماذا يصير النور لهيباً مشتعلًا ، ويُصبح الضياء جحياً مندلعًا ، يحرق في جسمه ونفسه ، ويكوي قومه وبني جنسه ؟

ما هذه الحروب التي تسيل الدماء فيها بجوراً زاهرة ؟ ما هذه الوحشية الثائرة الكاسرة ؟ ما هذه الحقود الفائرة الكافرة ؟ ما هذه الحياة الحيوانية الكاشرة السافرة ؟ حقاً لقد اختل البشر فأصبحوا بحاجة إلى هدى يُرجع إليهم توازنهم ، ويحيل شرهم خيراً ، وعسرهم يسراً .

لابد لهذه الفوضى الخلقية التي انغمس فيها الفرد والمجتمع من تشخيص وعلاج ، عل ذلك يرجع الوحش إنسانا يشع الرحمة في الحياة ، وعل القلوب التي تحجرت على الشر والبغضاء ، تلين قناتها ، وتصبح ينابيع خير وإخاء فتدشر السعادة أجنحتها على السكون .

علم النفس والأخلاق :

لقد سلط علم النفس أضواءه على هذه الفوضى الأخلاقية ، واستطاع أن يكشف القناع عن جزء غير قليل منها : عن أسبابها وطرق علاجها . ولعل البعض يتساءلون ما لعلم النفس وهذه المشكلة الكبرى ؟ ما لهذا العلم الحديث الذي لم يستقر بعد استقراراً كبيراً ، يعمل على أن يغوص في مله الحياة العظمى ، وهو لا يزال ، رطب العود ، محدود الجذور ، ضيق الظل ، قليل الثمر ؟ والجواب على هذا ، إنه العلم الوحيد الذي أخذ على عاتقه أن يبحث في عقل الإنسان ودوافعه ونزعاته ، ما هي ، وكيف تتطور ، وكيف تتأثر ، وكيف تتفاعل وتتغير . والأخلاق : إنما هي بناء على أساس من تلك الدوافع والنزعات البشرية . فمن الخير أن نصيب في دراستها مما جنى هذا العلم مهما كان محدوداً قليلاً .

لم يقل أحد من الناس ، عند ما كان علم الطب في بدايته ، ألا ننتفع من بحوثه حتى يكبر ويكمل ، بل أخذ الناس بالإفادة منه . وكلما نما ، زاد انتفاعهم به . . ثم ، أي علم وصل إلى كمال ؟ بل أي علم يصل إلى كمال ؟ إن من واجب الإنسان ومن حقه أيضاً أن ينتفع بأية معرفة يصيبها مهما كانت ضئيلة يسيرة . . إن ذلك ليوسع أيضاً من آفاق المعرفة ، فتزداد فائدتها ، ويعم نفعها . وعلم النفس الذي يتصل اتصالاً وثيقاً بالإنسان كما يدنا ، لا يطبق أن يرى مأساته الخلقية ثم يقف مكتوف اليدين أمامها . لقد نشر علماء النفس ما وصلوا إليه من معرفة فامتزجت بمناح كثيرة من الحياة الإنسانية ،

وكانت باسمها لكثير من علمها وجناح رحمة ؛ فكم أفادت التربية من هذا العلم الحديث ، وكم أفاد الطب منه . فلماذا إذن لا تفيد الحياة الأخلاقية للفرد والمجتمع منه أيضا ؟

وكان أكثر من بحث في الأخلاق علماء التحليل النفسى^(١) . وليس من عجب في ذلك ، إذ أن التحليل النفسى بدأ أول ما بدأ ، طريقة للعلاج النفسى ، تهدف إلى أن ترفع ما فى أعماق المريض من قوى ودوافع وأفكار ونزعات ورغبات دفينه وقديمة ، حتى تظهر سافرة على مسرح حياته الشعورية ، وتندمج ثانية فى تيارها ومجراها ؛ إذ وجد العلماء أن لهذا أثر أعظيما فى العلاج ومعنى هذا أن زيادة إدراك المرء لما يجرى فى عقله أمر مرغوب فيه ، بل إنه بمثابة وقاية له من المتاعب والأمراض النفسية ، وبعض الأمراض الجسمية . وبمعنى آخر أيضا ، إنه ليس من الصحة العقلية والنفسية فى شئ أن يتباعد ما بين شعور المرء ، والكثير من رغباته ودوافعه وعواطفه ومشاعره ، وذلك بكتبتها ودفنها فى قرارة العقل الباطن ، حيث تكون هناك مثل الميكروبات الخفية تنهش فى شخصيته ، وتسمم آراءه ورغباته الشعورية ، وتلوى سلوكه وأفعاله ، وتقعده عن أمانه وآماله ، وتجعله يستغرق فى أحلامه وخياله ، وقد تحيله إلى مجرم عتيد فى الإجرام .

إن التحليل النفسى يؤدى بالمرء لأن يجابه طبيعته ، ويحاول أن يعبر عنها ولو بالألفاظ . إنها لتماثل طريقة الاعتراف التى تتطلب من الفرد أن يفكر فى ذنوبه وخطاياهم ويستشعرها ويعترف بها لنفسه أو ربه أو غيره ممن يستطيعون أن يعاونوه فى أن يشق لبواعثها بعد ذلك سبلا غير سبل الإثم والخطيئة .

(١) مدرسة التحليل النفسى School of Psycho-analysis مؤسسها سيجموند فرويد
Sigmund Freud (١٨٥٦ — ١٩٣٩) .

وإنها لتقف على طرفي نقيض مع طريقة الضبط الخلقى ، التى بها يحاول الإنسان أن يزيج عن شعوره كل الأفكار والمغريات التى قد تتعارض مع هذا الضبط . ولقد ازدادت شقة الخلاف بين التحليل النفسى والضبط الخلقى عندما كشف الأول عن أمرين هامين ، أولهما : أن مكنونات العقل الباطن البعيدة عن شعور الإنسان ، غالبا ما تكون من نوع غير خلقى ، أو على الأقل تتصل بما هو مناف للأخلاق ، أى غالبا ما تكون من النوع الذى يتعارض مع المعايير الأخلاقية العامة بالنسبة للمجتمع ، أو الخاصة بالفرد .

وثانيهما : أنه وجد فى العقل قوة لا شعورية فى الغالب ، تعمل على مقاومة هذه المكنونات ، ومنعها من أن تظهر فى شعور الإنسان . والتحليل النفسى بصفته طريقة ، يحاول التغلب على هذه المقاومة ، وتخفيف قوة المنع والسكت هذه إلى أقصى حد . وإذا كنا نسلم بأن مكنونات العقل الباطن هى من نوع غير خلقى أو من نوع شرير ، فلا بد إذن أن تكون هذه القوة السكابتة المانعة اللاشعورية منتهية إلى النظام الأخلاقى . ومن أجل هذا أطلق عليها اسم الرقيب .

وليس من العسير الآن أن ندرك السبب الذى من أجله اتهم التحليل النفسى بأنه طريقة غير أخلاقية . أليس هدفه أن يزيل تلك القوة اللاشعورية الرقابية على الرغبات والنزعات والأفكار ، المنافية للأخلاق حتى تتفجر هذه إلى أعلا وتصب فى شعور الإنسان ؟ ماذا يبقى من الخير للإنسان بعد أن تدب تلك الرغبات والنزعات الشريرة فى حياته الشعورية ؟ ماذا تفعل به و بالمجتمع ؟ ألم يقل فرويد إن الحواجز التقليدية التى تقيمها المعايير الخلقية هى أعظم وأشدّ عما تتحمله الطبيعة البشرية^(١) ؟ ثم ألم يكن لهذا أثر بعيد المدى لدى بعض الناس

وبعض الجماعات ، ونادى عدد من المتحمسين المبالغين منهم ، بوجوب تجنب أى ضبط أو ردع بل وأى تنظيم لدوافع الإنسان فى أثناء تنشئته ، مخافة أن يؤدى ذلك إلى كبته ، وظهور أعراض الشذوذ والعصاب عليه نتيجة لذلك؟ ولكن المحلل النفسى يفند تلك الاتهامات ، بأن يبين للناس أن مهمته الرئيسية ، هى معالجة الأمراض النفسية ، وتفهم طبيعة المشكلات والمتاعب التى يواجهها الفرد ، والتعرف على أصولها وأسبابها ؛ وأنه يسرد ما يراه ويقف عليه ، ويقرر ما يلاحظه ويصل إليه ؛ وأنه عندما يفعل ذلك لا يخطر بباله مطلقاً أن يعارض التقاليد والأنظمة الخلقية السائدة ؛ وأن الكشفوف التى قام بها نتيجة بحوثه المستفيضة ، قد بينت فوق ذلك أن الأمراض العصبية والنفسية ليست إلا نتاج فشل فرائسها من الناس فى القيام بضبط خلقى صحيح ، مما يتمنخض عن عجز وشقاء وفوضى فى الاخلاق ، وأنه بصفته معالجاً ، يبذل جهده فى أن يكون فى المريض وجهة نظر جديدة نحو الحياة تجعله أكثر تعاوناً فيها ، وأنسق انسجاماً مع المجتمع وما يضمه من أنظمة وتقاليد .

إن هؤلاء الذين يستندون إلى التحليل النفسى ، لينادوا بأن السكبت جميعه شر ، وأن التقاليد والآداب العامة التى تؤدى إلى بعض السكبت عرقلة فى سبيل تقدم الجنس البشرى ، إنما هم قوم لم يفهموا التحليل النفسى تمام الفهم ، ولم يثبتوا ما تنطوى عليه تعاليمه من خير للفرد والمجتمع . وليس الذنب ذنبه فى هذه الآراء المتطرفة المغلوطة التى ينادى بها هؤلاء ، والتى قد يوحى بها أيضاً تابعون مبالغون لبعض مدارس التحليل ، ينظرون فى الغالب إلى الحياة نظرة فلسفية خاصة بهم (وما أكثر الفلسفات الخاصة الضارة الآن) ، لا يمكن أن يقرهم عليها أيضاً علماء التحليل الأصليون . وإلا ، فما ذنب الكيماوى الذى كشف عن علاج للمريض ، يرجع إلى أعضائه المقلقلة اتزانها ، وإلى صحته المحتملة قوتها وسلامتها ، على أن يتناول من ذلك العلاج بمقدار ، فإذا بمتحمس أحق ،

يعطيه أضعاف المقدار المحدد مرة واحدة، فيزداد بذلك انحلال أعضائه، وتنافر قواه الصحية، وينزلف إليه الخراب والدمار والفناء .

حقاً لقد كشف التحليل النفسى عن أن بعض الطرق التى تتبع فى الضبط الخلقى ، طرق زلقة فلقمة مدمرة . وأوضح فوق ذلك بشكل لم يظهر له مثيل من قبل ، أن الضمير الإنسانى بصفته قوة من قوى العقل أو النفس ليس دائماً قوة تؤدى إلى خير كما يتبادر إلى الأذهان ، بل إنها قد تؤدى إلى شر . ذلك لأن الرقيب أو الضمير القائم على الأخلاق ، والذي هو فى صراع مستمر مع الرغبات المكبوتة المنافية لها ، ليس دائماً قوة فائزة منتصرة . وقد عرف الأخلاقيون هذه الحقيقة منذ زمن . ولذلك اتجهت جهودهم إلى تقوية الضوابط الخلقية . ولكنهم استشعروا فى الوقت نفسه أن الرقيب قد يصل حداً فظيماً شديداً من الضغط لدوافع الإنسان وكبتها ، حتى يقع الإنسان فريسة لأمراض عصبية مختلفة ، بدلا من أن يزداد مناعة خلقية ؛ مثله فى ذلك مثل المدرب الذى يواصل تدريب الحيوان أو الإنسان كما يزيده قوة ، فإذا بهذه المواصلات تنهك وتحطم قواه ، بدلا من أن تشد أزره ، وتنشط عضده ولم تكن ممارسة الاعتراف إلا دليلاً ضمنياً على ضرورة اللجوء إلى التنفيس بعض الشيء عن تلك الدوافع المنافية للأخلاق ، بدلا من الاشتداد فى ضغطها والاستمرار فى كبتها ، وقد أبان التحليل النفسى عند ما اتسعت بحوثه ، أن المتاعب التى تحدث من المبالغة فى السكبت ، متاعب مؤلمة مرة ، إذ يعمل السكبت على إيجاد هوة سحيقة بين المستوى الخلقى للرقيب ، وهو فى الغالب لا شعورى كما سيتبين بعد ، والمستوى الخلقى لشخصية الراشد الشعورية ، وللجتميع الذى يعيش فى أحضانه ، إذ يظهر الرقيب قوة جامدة جافة بعيدة

دقة أن سمحتة تلك ، انمقدن كما ان ذلك من ما ليقون أن راد ، ليهتمكس لتهمة

عن عالم الواقع للراشد^(١) . فقد يمنعه من ممارسة مهنته التي أعد نفسه لها ، لأنها تتصل بشكل لا شعورى بميل أو رغبة طفلية مكبوتة ؛ وقد يشعره بالحسرة والندم وتأنيب الضمير أثناء معاشرته لزوجته لأن بها شياً من أم أو أخت أو خالة ، كبت ميله الجنسي نحوها كبتاً شديداً من قبل ، فأصبحت الزوجة بذلك صدى للذة محرمة مكبوتة بدوى من الأعماق ، فيملاً حياته الشعورية رعباً وفزعاً ، وقلقاً وجزعاً .

وكذلك تبين أن الصعوبات التي يواجهها المعالج النفسى ، والتي يجد ألا مفر من التغلب عليها حتى يتنجح فى علاجه ، وحتى يستطيع أن يهيء نفسية المريض تهيؤاً جديداً يمكنه من أن يحيا حياة سوية سعيدة - هذه الصعوبات لا تنشأ فقط عن الغرائز بحالتها الهمجية الملحة الصارخة ، التي تتعارض مع الأوضاع الاجتماعية والتقاليد والمثل الخلقية ، ولكنها تنشأ أيضاً عن معارضة تلك القوى الخلقية الكابتة العنيدة العتيدة الجامدة ، لتلك الغرائز . وهاتان القوتان : قوة الغرائز فى حالتها الهمجية الفطرية ، وقوة السكبت الخلقية (الرقيب أو الضمير) فى حالتها الجامدة الصارمة ، تصلان إلى نوع من الاتفاق فيما بينهما ، ولكنه اتفاق غريب لا يساير الواقع فى شئ ؛ إنه لقريب الشبه بالمهادنات أو المعاهدات المراوغة الفضفاضة التي يوقعها غريمان متنافسان ، يُبيتان الشر أحدهما للآخر ، ويقف كل منهما بالمرصاد للآخر ، عابسا متجهما متحفزاً لأن يضرب ضربة مردية .

وإذا ما نجح المحلل النفسى فى أن يشعر المريض بذلك الصراع الداخلى ،

(١) إن الرقيب بصفته وريث الوالدين أو صورة لها يفعل فعلهما من الأمر والنهى والرضا والجزر والتأنيب والعقاب دون أن يشعر الإنسان به فى الغالب ، ولذلك لا يستطيع ان يوفق بين نفسه وهذا الرقيب أو الضمير بينما يستطيع ذلك مع والديه الحقيقيين لأنه يشعر بهما وبذلك يستطيع أن يفهما معهما .

الذى يجرى فى أعماقه بين هاتين القوتين ، ويجعله يدرك ويلبس ذلك الجزء المنقسم من عقله ، المشطور إلى حزبين متعادين ، يكون قد خطا بذلك خطوة واسعة فى سبيل التوفيق بينهما ؛ إذ يستطيع أن يستحث القوى التفكيرية الشعورية للمريض ، لأن تقوم بهذا التوفيق . ثم بشيء من الإرشاد والتوجيه أو ما يسمى بالتربية من جديد Re-education يستطيع المحلل أن يصل بالمريض إلى حال من الاستقرار والهناء ، إذ تنساب فى شخصيته كلتا القوتين بعد أن تصبحا وحدة متآلفة منسجمة مع شخصيته الشعورية . وبذلك تحبوا تلك الحرب الضروس التى كانت تتأجج فى داخل نفسه ، دون أن يلبس مواقعها ، أو حتى يشعر بها ، بالرغم من أنه كان يكتوى بنارها ، ويحترق فيها عقلا وقلبا ، وكأنه فى جحيم أبدى وسعير سرمدى ، يلاحقه فى جميع ظروف حياته : فى عمله ، وفى مجتمعاته ، وفى زواجه ، وفى معاملته لأولاده ، بل وفى نومه وأحلامه أيضاً .

نتبين من هذا أن القوة الخلقية المكتبة فى نفس الإنسان ، أو الرقيب أو الضمير ، قد تكون مصدر متاعب له ، وأنها تقف كثيرا عقبة كأداء فى سبيل العلاج بالتحليل النفسى . بل أثبت التحليل أكثر من ذلك ، أن الضمير ليس دائما موجها كإليا أو مرشدا ملائكيا للإنسان كما يظن الكثيرون ، بل إنه قد يزخر بالفوضى والاضطراب . وقد ركز التحليل النفسى عليه بحوثا مستفيضة ألقت كثيرا من الضوء على كنهه وتركيبه ، وتفاعلاته وآثاره ، كما سنتبين ذلك فيما بعد .

تحليل النفس البشرية :

وقبل أن نأخذ الضمير بالتحليل ، أرى من الواجب أن أشير إشارة عابرة إلى طبيعة العقل أو النفس كما يراها علماء التحليل النفسى .

إن العقل أو النفس تنقسم نظريا إلى ثلاثة أقسام : الذات السفلى أو id

وهي التي يزود الإنسان بها في الحياة ، وتحوى غرائزه في حالتها الهمجية الوحشية ، وهي منبع نشاطه الحيوى ، ومصدر جميع طاقاته ، وهي عمياء من الناحية الاجتماعية ، لا تعرف خيرا أو شرا ، ولا تميز بين صلاح وطلاق ، كل همها أن تصل إلى هدفها ، محكومة في ذلك بمبدأ اللذة . أى أنها تأتى باللذة إن تحققت أهدافها ، وبالآلم إن وقف في سبيلها عائق . فإن أثرت غريزة المقاتلة في الطفل الصغير الذى يتحكم في سلوكه هذا النوع من النفس في الغالب ، دفعت به لأن يهدم ويحطم ويدمر ويقتل ، وإن أثرت فيه الغريزة الجنسية أرغمته على أن يحققها بأى شكل ومع أى شخص ، وإن أثرت فيه غريزة الامتلاك أو الاقتناء اضطرت له لأن يخطف ويأخذ ما أثارها مهما كان ، لايهمه في ذلك أحد ، ولا يعتبر أى وضع أو حكم أو قانون .

ولسكن سرعان ما يستشعر الطفل أنه يعيش في هذه الحياة ، وأنه جزء من هذا العالم الذى يؤثر في حواسه ، ويستقبل منه انطباعات مختلفة تأتى إليه من جسمه أولا ثم من محيطه وبيئته ، وتتحكم في حركته الإرادية وتضبطها . وبذلك يبدأ جزء من الذات السفلى يتصل بهذا العالم الواقعى الذى يعيش فيه . ويتكون نتيجة لذلك ما يعرف بالذات أو ego . وهذه الذات معقولة بالنسبة للذات السفلى ، إذ تسير على مبدأ الواقع والحقيقة ، لا على مجرد مبدأ اللذة . ولذلك قد يرجىء الطفل اللذة العاجلة ، بإرضاء غرائزه مباشرة كما تريده الذات السفلى أن يفعل ، إلى لذة آجلة ، إن وجد أن الأولى قد يتبعها ألم ، أو قد تتعارض مع عالم الواقع الذى يعيش فيه . فقد يثير الأب في الطفل غريزة المقاتلة ، إن عاقبه عن تحقيق غرض له ، ولسكنه يدرك ضالة قوته ، وضعف حيلته بالنسبة لأبيه ، فلا يستطيع أن يحقق الغريزة بحالتها الهمجية ، من حيث إلحاحها عليه أن يعتدى على أبيه بالضرب مثلا ، فيفكر في شكل من الاعتداء .

يتناسب مع الواقع الذى يدركه ويستشعره ، قد يكون على شكل صراخ مزعج ، أو تدمير لشيء مقدّر من أبيه ، أو تحايل على تحقيق غرضه بشكل لا يثير الممانعة من أبيه .

وتستمد الذات قوتها ونشاطها من الذات الدنيا . واذلك فهى تعمل جهدها على أن توفق بين مبدأ الحقيقة والواقع الذى يجب أن تسير عليه ، ومبدأ اللذة الذى يتحكم فى الذات السفلى . أى أنها تحاول أن ترضى الغرائز كما تريد الذات السفلى ، ولكن بطريقة معقولة تتفق مع الواقع والحقيقة . وقد صوّرت العلاقة بين هاتين الذاتين بالعلاقة بين الحصان والفارس ؛ فالأول مصدر الحركة ، ومنبع النشاط ، ومدّخر القوة والطاقة . ويعمل الفارس لىكى ينتفع بذلك النشاط وتلك القوة على أن يترك للحصان العنان ، يجرى ويمرح ؛ ولكنه يقوم بتوجيهه بالطريقة التى يراها متمشية مع الواقع ، فيبتعد به عن العثرات والحفر ، والسبيل الوعر .

حقاً ، قد يجمع الحصان بصاحبه فيتلاشى سلطانه عليه ، ويسير الحيوان به كيفما يشاء ، فتجد الذات السفلى تخضع الذات لسلطانها فى بعض الأحيان ، وإذا بالإنسان يندفع لإرضاء غرائزه الهمجية دون وعى منه ، ودون مقدرة على كبح جماحها ، أو صدها عن غيها ، وإذا به يدب ديبب الأعمى فى الحياة ، لا تبصر ولا تعقل ولا اتزان ، وإذا به مجرم يتلذذ من إجرامه ، وينتشى من ارتكاب أفظع أنواع الفحش والخطايا .

على أن الأمر لا يقف عندهذا الحد ، إذ تجد الذات نفسها محكومة بقوى خارجية تتمثل أولاً فى الوالدين ، فهما يريدان الطفل أن يفعل شيئاً ولا يفعل شيئاً آخر ؛ وهما يتحكما فى سلوكه وأفعاله . فهو يجب أن يكون نظيفاً ، ويجب ألا يعتدى على إخوته ، بل يجب أن يحبهم ، ويجب ألا يكون قاسياً على صغار

الحيوانات والطيور، بل يرأف بها ويشفق عليها؛ ويجب أن يذهب إلى فراشه في وقت معين؛ ويجب ألا يملأ المنزل ضجيجاً، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي التي يصدرها الوالدان دائماً أبدأ للطفل، ويستعملان في استدرأجه لتنفيذها كل أنواع الإغراء والتهديد.

وإذا بذات الطفل تشرب سلطان الوالدين، وتقمص منهما شخصيتهما المتسلطة المتنفذة. وبذلك يتحول جزء من الذات إلى ما يسمى بالذات العليا أو Super-ego، التي يمكن أن نعتبرها ممثلة لسلطان الوالدين. وإذا بهذه الذات العليا تتحكم في الذات من الداخل بدلاً من تحكمها فيها عن طريق الوالدين من الخارج، كما كان يحدث من قبل. وإذا بالطفل يدرك في نفسه ومن نفسه ما يجب أن يفعله وما يجب أن يتجنبه. وإذا به ينفذ أوامر الذات العليا تنفيذا جامداً، فيستشعر الرضا إذا ما عمل تبعاً لأوامرها، ويستشعر السخط عن طريقها، أو يقاسى عقابها إذا ما خالفها.

وتنمو الذات العليا بنمو الطفل وزيادة السلطات التي تتحكم فيه، إذ يشرب التعاليم الخلقية، والتقاليد السائدة، والنظم الاجتماعية، وأحكام الدين وغير ذلك. وتصبح أقرب شياً بما نسميه الضمير، الذي يصدر عنه ما يعرف بالشعور بالذنب أو الخطيئة Sense of guilt إذا ما قام الإنسان بما يخالفه. وقد يتطور هذا الشعور بالذنب إلى حالات من القلق النفسى المريع؛ بل قد يمرض الإنسان تكفيراً للذات عما جنت وارتكبت ضد الضمير.

ويختلف تكوين الضمير من شخص لآخر تبعاً لظروف طفولته، ونوع التربية التي تلقاها، والمعاملة التي عاها. وهو تكوين لا شعورى في أغلبه. أى أن المرء لا يشعر به فى الغالب، بالرغم مما له من كبير الأثر فى توجيه سلوكه، وإثارة قلقه، ومقاساته تعذيبه، وإنهاكه لأعصابه، وإخلاله بصحته.

ومن أجل ذلك وصفناه من قبل بأنه قوة جافة جامدة عتيدة . ولا يقتصر أثر الذات العليا أو الضمير أو الرقيب على كونه حاكما داخليا ، ومنظما باطنيا ، ومسيطرأ خفيا على سلوك الإنسان وأفكاره ورغباته ، بل إنه يقف قوة رقية على دوافع الإنسان المتصارعة في ذاته ، وحكما متنفذا بين رغباته المتضاربة . فكثيرا ما تقاسى الذات المسكينة من حروب حامية تدور رحاها في داخلها ، فحب يصارع حبا ، ورغبة تعارض رغبة أخرى وهكذا ؛ فتعمل الذات العليا على فض هذا الصراع والنزاع ، وذلك بتنجية ما ترى وجوب تنجيته ، وإبعاده عن الذات الشعورية ، وإسقاطه في مكن خفي من العقل . وبذلك يتكون في ذات المرء عقل باطن أو لاشعور جديد مكتسب غير طبيعي له قوته ، وفيه طاقته ونشاطه ، وله أثره أيضا في سلوك الإنسان وأفكاره وشخصيته الشعورية بوجه عام .

وهكذا نرى أن النفس الإنسانية ثلاثة أقسام : نفس سفلى لاشعورية تحوى الغرائز بحالتها الهمجية الوحشية ، ونفس واقعية تتكون من اتصال النفس السفلى أو الذات السفلى بالواقع وعالم الحقيقة ، ونفس عليا أو ذات عليا وهي ما يمكن أن نسميها بالرقيب أو الضمير ، وتتكون نتيجة اتصال الذات بالقوى المسيطرة المتحركة في المرء من الخارج ، وامتصاص جزء من الذات لهذه القوى ، أو تقمصها إياها بحيث تصبح قوة رقية محاسبة داخلية لاشعورية في الغالب .

ومن هذا نجد أن النفس البشرية بأقسامها الثلاثة ، أو مظاهرها الثلاثة ، نفس معقدة التعقيد كله . وأنها منذ بدء وجودها بطبيعتها ، وهي في حالة همجية وحشية ، تحتاج إلى أن يتناولها بالتربية والتهديب أيد صالحة ، وعقول متيقظة متفهمة إلى حد غير قليل بالطبيعة البشرية ، خصوصا في السنوات الأولى من

حياة الناشئ . ومن أجل هذا ينادى المربون بضرورة تعليم الفتيات وهن أمهات المستقبل ، اللاتي سيقعن عليهن هذا العبء الثقيل أكثر من الآباء ، وأكثر من أى شخص آخر ، ينادون بضرورة تعليمهن شيئا غير قليل عن النفس البشرية ، وعن كيفية تهذيبها وإحداث التوافق والانسجام بين أقسامها ومظاهرها ، فى أثناء تطورها وتوالدها من النفس الأولية ، أو ما سميناهما بالذات السفلى .

وليس هذا التحليل للنفس البشرية ببدعة جديدة أو كشف فريد أتى به علم التحليل النفسى ، ولكننا نجد شيئا قريبا من ذلك فى الكتب السماوية وفى أقوال الفلاسفة ^(١) والشعراء كما نجد أن تحليل النفس لدى علماء النفس المعتدلين يكاد يتقارب مع ما أبداه علماء التحليل النفسى ، بالرغم مما يترأى لنا من سعة شقة الخلاف بينهم فى غير ذلك من الآراء .

فالقرآن الكريم يتحدث عن أنواع مختلفة من الأنفس كما يتبين من الآيات الآتية :

(١) « وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » .

والنفس هنا هى النفس السفلى .

(٢) « يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

ويتبين أن النفس المذكورة هنا هى النفس العليا .

(٣) « إن كل نفس لما عليها حافظ » .

النفس هنا هى النفس الواقعية أو الذات ، والحافظ هو الرقيب أو الضمير

(١) الكتاب الرابع من جمهورية أفلاطون ملى بمناقشة بديعة لتقسيم الروح إلى أقسام ثلاثة تكاد تشبه التقسيم الذى ذكرناه .

(٤) « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » .
وقد جمعت هذه الآية بين الذات والنفس السفلى والنفس العليا .
ويلاحظ الترتيب في ذكر القوتين المؤثرتين على الذات ، فقد بدأ القرآن
السكريم بالنفس السفلى (فألهمها فجورها) وهي النفس الوراثة المكونة من
الغرائز في حالتها الهمجية ، وهي أولى أنواع النفس وجودا لدى الإنسان ؛ ثم
ذكر بعد ذلك النفس العليا وهي التي تتكون فيما بعد كما سبق أن وضحنا .

وقال ابن حزم « إذا لم يكن للمرء من سوء فعله ما يؤنبه عليه ضميره ،
أمكنه أن ينام ملء عينيه هادئا مسترخيا ولو جعلوا فراشه من شوك القتاد » .
هنا نجد الكلام عن الضمير أو الذات العليا واضحا كما نجد في كلمة سوء
فعله ، معنى ضمنيا للذات والذات السفلى .

وكذلك نجد أنواع النفس واضحة في شعر الشعراء مثل :
لا ترجع الأنف عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولسكن قل على رقيب

والنفس من خيرها في خير عافية والنفس من شرها في مرتع وخم
ولو نحن درسنا بحوث علماء النفس المعتدلين وعلى رأسهم مكندوجل ،
واضع أسس علم النفس الاجتماعي ، وجدناهم يتحدثون لنا عن أربع مراحل
للسلوك البشري

أولها : مرحلة السلوك الغريزي ويحدث التعديل فيه عن طريق اللذة والألم
اللذين يخبرهما المرء في أثناء تحقيقه لغرائزه الحيوانية .

والثانية : مرحلة تعديل السلوك الغريزي عن طريق الثواب والعقاب
الذين يوقعهما المجتمع على الفرد .

والثالثة : مرحلة ضبط السلوك عن طريق توقع مدح المجتمع
أولومه .

والرابعة : مرحلة السلوك الراقى الذى يقوم على أساس من مثل عليا
تدفع الإنسان لأن يسلك السلوك الذى يراه صحيحاً ، بصرف النظر عن
مدح المجتمع أولومه .^(١)

أما المرحلة الأولى فهى تشابه تماماً مرحلة انسياق الإنسان فى أول
عهده بالحياة وراء الذات السفلى التى تكلمنا عنها .

والمرحلة الثانية تشابه مرحلة تكوين الذات ، نتيجة اتصال جزء من
الذات السفلى بالحياة الواقعية التى يعيش فيها الإنسان . إذ أن تعديل السلوك
الغريزي عن طريق الثواب والعقاب ، اللذين يوقعهما المجتمع ، كما يرى
مكدوجل ، يتضمن بدء شعور الإنسان بذاته ، وتهىء هذه الذات لحياة
الواقع والحقيقة .

والمرحلة الثالثة مرحلة انتقال بين الذات والذات العليا أو الضمير ، إذ
تتضمن اتخاذ الذات مثلاً لها من المجتمع الذى تتأثر به ، ومحاولتها أن تشكل
نفسها على شاكلة وتسير على هديه ؛ كأن يتخذ الطفل أباه أو أمه أو كليهما
مثلاً له ، وبذلك يتوقع مديحهما إن سلك سلوكاً يرتضيانه ، أو لومهما إن
ابتعد فى سلوكه عما يتطلبانه . ويهتم التحليل النفسى بهذه المرحلة التى يتبعها

(١) يمكن الرجوع فى ذلك إلى الباب السابع من كتاب :

Social Psychology By W.Mc'Dougall

الذى يتكلم فيه عن « نمو الشعور بالذات وعاطفة اعتبار الذات » .

مرحلة تكوين الضمير ، ويعتبرها أهم عامل في تشككه وتركيبه ، ويسميه عامل الذات المثلى ego-ideal وسيأتى الكلام عنه بالتفصيل فيما بعد .

والمرحلة الرابعة التى يتكلم عنها مكدوجل ، والتى حين يصلها الفرد ، يبدأ يتصرف ويسلك سلوكه تبعاً لمثل عليا عنده ، دون اعتبار لمذح المجتمع أو لومه ، تشبه تكوين الذات العليا أو الضمير لدى جماعة التحليل النفسى ، حين يتمثل الفرد ذاته المثلى أو مثله من المجتمع ، وخصوصاً من والديه اللذين هما ألصق الناس به ، وأشدهم تأثيراً فيه .

ويعترف مكدوجل باتفاقه فى آرائه عن النفس البشرية مع آراء جماعة التحليل النفسى ، إذ يقول فى كتابه التحليل النفسى وعلم النفس الاجتماعى Psycho-analysis & Social Psychology (ص ١٠٤ من الطبعة الثانية سنة ١٩٣٧) ما يأتى :

« ليس هناك اختلاف يستحق الذكر بيننا فى ذلك ، (أى فى تقسيم النفس) . »

وفى هامش الصفحة نفسها يبين أنه وفرويد متفقان إلى حد كبير ، ولو أنه يصوغ كلامه فى صيغة لاذعة فيقول : « إذا قرأ أى شخص ملم بكتابتى علم النفس الاجتماعى ، صفحتى ٩٠ ، ٩١ من كتاب فرويد ومحاضرات تمهيدية جديدة فى التحليل النفسى ، طبعة (١٩٣٣) فإنه يدرك بسهولة فى تلك الفقرة تكررأ مركزاً متضمناً لآرائى الرئيسية فى كتابى هذا الذى نشرته فى سنة ١٩٠٨ . إننى لا أتهم فرويد هنا بقراءته كتابى « علم النفس الاجتماعى » . إننى واثق أنه لم يقرأه ؛ ولكنى مسرور لأنه يكون يبطء آراء ممائلة لآرائى عن أهم المشكلات فى علم النفس الاجتماعى . »

الضمير الإنساني :

وسنقصر بحثنا على الذات العليا أو الضمير مبينين كيف يتكون ، وكيف يؤثر في سلوكنا ، ومتخذين من ذلك عبرة تنفعنا في تكوين أخلاق الناشئ . وأرجو أن يتذكر القارئ ما سبق أن أوجزت في تحليل النفس البشرية . نستطيع أن نميز في تكوين الضمير أربعة عوامل أساسية نلخصها فيما يلي :

١ - الذات المثلى Ego-i deal.

وتنشأ من أن طاقة الإنسان الحيوية المستمدة من غريزة الحياة العامة^(١) بحالتها الفطرية ، هذه الطاقة الحيوية ، أو قل هذا الحب للحياة ، لا يتصل فقط بالأشياء الخارجة عن ذات الإنسان ، ولكن جزءا منها يتجه نحو الذات . فكل فرد منا يحب نفسه ، كما أنه يحب غيره من الناس . وهذا ما يسميه علماء التحليل النفسي بالطاقة النرجسية أو الحب النرجسي^(٢) .

(١) نواة غريزة الحياة عند علماء التحليل النفسي هي الغريزة الجنسية لأنها الغريزة التي تدفع للتناسل واستمرار الحياة . ولذلك اهتم بها علماء التحليل اهتماما كبيرا أدى ببعضهم إلى المبالغة في اعتبارها مصدر الطاقة الحيوية عند الفرد ، وبنوا على ذلك آراء متطرفة نجدها في بعض بحوث فرويد وأتباعه . ولكي يأخذ القارئ فكرة مبسطة عن ذلك ، يمكن أن يرجع إلى كتاب « التحليل النفسي للأطفال » تأليف « أنا فرويد » وتعريب المؤلف .

(٢) الكلمة الانكليزية للحب النرجسي أو حب الإنسان لذاته هي Narcissism وهي مشتقة من كلمة Narcissus أو نرجس ، وهو تبعا للأسطورة الأغريقية ، اسم لابن إله النهر ، كان يمتاز بجمال فاضح وقد أحبته الحورية Echo « إكو » ولكنه رفض حبها ولم يعرها أى اهتمام فغضبت الآلهة عليه . وفي مرة من المرات رأى نرجس صورته منعكسة من عين ماء فأغرم بالصورة وهام بنفسه هياما شديدا أضناه وأفناه ، وظهرت زهرة النرجس في المكان الذي مات فيه .

والأصل في هذه الأسطورة ، الخرافة التي كانت شائعة لدى الإغريق ، وهي اعتقادهم في أن رؤية الإنسان في حلمه لصورته منعكسة من الماء ، نذير بموته .

ويتطور حب الإنسان لذاته ، وينشطر شطرين ، شطر يتصل بذاته الحقيقية كما هي . فكل إنسان يحب نفسه على ما هي عليه ، ولكنه باحتكاكه بالحياة الخارجية ، ومقارنة ذاته بالذوات الأخرى التي حوله ، سرعان ما يشعر بأن ذاته ناقصة قاصرة في كل ناحية : في الناحية الجسمية والعقلية والخلقية ؛ فينسج من خياله ذاتا مثلى يود ويطمح أن تكون هي ذاته الحقيقية . ويتصل بهذه الذات المثلى الشطر الآخر من حب الإنسان لذاته الذى أشرنا إليه من قبل . وهذه الذات المثلى أو ego-ideal هي أول العوامل في تكوين الذات العليا أو الضمير وأهمها . وسنرجع إليها بشيء من التفصيل فيما بعد .

٢ — والعامل الثانى في تكوين الذات العليا هو عملية امتصاص أو تمثيل أو تقمص لما عليه الآخرون من أخلاق وصفات ، وخصوصاً الوالدين اللذين يتحكان فى الطفل ويسيطران على سلوكه وتصرفاته ، أو من يقوم مقامهما فى ذلك . ومن ثم يصبح الشكل الذى عليه الوالدان أو غيرهما من الأشخاص ذوى النفوذ والسلطان علينا وذوى التأثير العظيم فىنا أثناء طفولتنا ، يصبح هذا الشكل بعد أن تتمثله — وهو الصورة الأولى لذاتنا المثلى — جزءاً من تركيبنا النفسى أو العقلى ، وكأنه طبيعة ثانية لنا^(١) . وبواسطة هذه العملية ، نتوارث المعايير الخلقية والتقاليد الاجتماعية من جيل إلى جيل ؛ إذ أن هذا التركيب الداخلى الذى تتمثلناه من المتنفذين المسيطرين علينا ، علاوة على تأثيره فىنا ، فإنه ولا شك يؤثر أيضاً فى أبنائنا فيما بعد ، فيتمثلونه إلى

(١) يمكننا أن نشبه عملية التقمص هذه بعملية التقليد اللاشعورى التى بها يحاكي الطفل والديه أو المتنفذين فيه فيتكلم ويمشى ويتصرف كما يتكلمون ويمشون ويتصرفون ، وبأخذ عنهم آراءهم وأفكارهم وعقائدهم ، ويشرب بهواظفهم ومثلهم ، ويصبح كأنه نسخة مصفرة منهم .

درجة كبيرة كما تمثلناه نحن عن والدينا . ولهذا فغالباً ما تبقى المعايير والتقاليد والقيم الخلقية ثابتة مستمرة إلى أمد كبير .

٣ - والعامل الثالث في تكوين الذات العليا قسوة ناشئة عن مشاعر عدوانية طبيعية . فكثير من الأشياء الخارجية حول الطفل ، ومنها الوالدان تقف عقبة في سبيل إرضاء رغباته ودوافعه ، وبذلك تثير فيه الغضب والعدوان ، فيحاول التغلب عليها ، ومحوها من طريقه ، حتى يحقق بذلك رغباته ودوافعه . ولكن غالباً ما يكون عدوان الطفل فاشلاً لسببين هامين : أولهما ، أنه ضعيف الحيلة ، محدود القوى إزاء تلك العقبات . وثانيهما ، أن بعض هذه العقبات أو معظمها في حياة الطفولة الأولى ، تتمثل في الوالدين أو من يقوم مقامهما ، وهم الذين يخنون في الوقت نفسه على الطفل ، ويعطفون عليه ويحبونه ، وهم أيضاً سنده وعماده في الحياة . فإن هو عبر عن مشاعره العدوانية نحوهم بشكل واضح ، كأن شتمهم أو ضربهم ، أو دمر شيئاً من متاعهم ، فإنهم يقعون عليه العقاب ، إما بالضرب ، أو بسحب عطفهم عليه ، والوقوف عن حبهم له . حقاً إن من مآسى الحياة الكبرى أن يضطر الإنسان لأن يكره من يحبه حباً عميقاً^(١) . وإن هذه المأساة تبدأ من الطفولة الأولى . ونجد مظاهرها في الرضيع حين يعتدى على أحب شيء لديه ، وأعز موجود عنده ، فيعض أمه في ثديها الذي يشبعه من جوع ، ويرويه من ظمأ ، ويمده بالرضا والهناء - وإنما تستمر طول الحياة في الصلة بين ذاته وذاته العليا

(١) لقد عبرت الكتب السماوية عن هذه المأساة الإنسانية فجاء في القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » سورة «التغابن» : كما جاء في انجيل متى في الاصحاح العاشر فقرة ٣٦ : « وأعداء الانسان أهل بيته » .

التي تتجه إليها عاطفتا الحب والكرهية ، كما تنبعثان منها أيضا .
 ما ذا يفعل الطفل الصغير عندما يجد نفسه عاجزاً في كثير من الأحيان ،
 عن أن يعبر فعلاً عن كراهيته لوالديه ، فيعتدى عليهما عند ما يقفان حاجزاً
 منيعاً بينه وبين رغباته ؟ إنه لا يستطيع أن يحول عدوانه نحو أخ له فيوسعه
 ضرباً ، أو نحو قطته فيرفصها أو يلقمها حجراً ، أو نحو بعض المتاع فيعمل
 فيه تدميراً وتحطياً ، كما يستطيع أن يفعل عند ما يكبر ويشهد ساعده . ليس
 أمامه سوى ذاته هو ، يصب عليها جام غضبه ، وينفذ فيها دافع العدوان الذي
 يملؤه : إنه ليشد شعره ، ويخدش وجهه ويلطم رأسه ، ويعض لسانه أو يده .
 وإن الإنسان ليقوم بذلك طول حياته . فكم من المرات يشتم الراشد نفسه ،
 وينعتها بالغباء ، ويتمنى لها الموت ؛ وكم يدق على صدره دقاً مبرحاً ، أو يصفع
 وجهه صفعاً مبرحاً (١) .

وفي الغالب يبدأ هذا العدوان الذي تثيره الحياة الخارجية ، وخصوصاً
 الوالدان أو من يمثلهما — يبدأ يتجه نحو الذات في المرحلة من الحياة التي
 تحدث فيها عملية الامتصاص أو التمثيل أو التقمص التي أشرنا إليها من قبل .
 فالطفل يتمثل الوالدين الأمرين الناهيين في نفسه ، فيصبحان جزءاً من عقله
 أو نفسه في صورة الذات العليا أو الضمير . وبذلك يتلقى الأوامر والنواهي
 من ذلك الجزء من العقل . وفي الوقت نفسه ، يتحول عدوان الطفل ضدّهما
 إلى ذاته . وتمتزج العمليتان معاً : عملية التمثيل ، وعملية تحول العداء نحو
 الذات . وينتج عن هذا التمازج أن يتصل العداء بالذات العليا ، وكأنه صادر

(١) يشاهد هذا أيضاً في كثير من الأمهات . ففي بعض الأحيان عندما يذنب الطفل ، تتحول
 المشاعر العدوانية للأم ضده نحو نفسها . فبدلاً من أن تعاقبه ، فانها تعاقب نفسها بأن تلطم وجهها
 أو تشد شعرها أو تتألم وتبكي ألماً كأن عقاباً قد وقع عليها .

عنها . وبذلك تصطبغ الذات العليا الممثلة للوالدين المتنفذين داخل العقل ، بالعدوان الراجع إليهما بالطبيعة بصفتهما عاملين رادعين ، وسدين منيعين ، يقفان في وجه الطفل عند محاولته تحقيق الكثير من رغباته . ويشد أزر الذات العليا في عدائها وعدوانها ضد الذات ، دوافع العدوان في الطفل نفسه ومن أجل هذا وغيره ، تصبح الذات العليا أو الضمير ، أشد بأساً وأفظع قسوة وأشنع عدواناً من الوالدين الحقيقيين .

٤ - أما العامل الرابع في تكوين الذات العليا أو الضمير ، فإنه يتصل بعض الاتصال بالعامل السابق ، وهو وجود الدوافع العدوانية لدى الذات العليا أو الضمير تجاه الذات - وهذا العامل الرابع هو الميل لاستشعار اللذة من التحكم والإيلاء لمجرد التحكم بالإيلاء ، زيادة على التحكم والإيلاء والقسوة التي تصحب الدوافع العدوانية التي تكلمنا عنها من قبل . أى أن هناك ميلاً لدى كل إنسان ، يجعله يتلذذ من أن يؤلم ويقسو لمجرد الإيلاء والقسوة ، وفي الوقت نفسه يتألم ويقامى لمجرد الألم والمقاساة . وقد سمي هذا الميل ، بالميل الماسوشي - السادى .

والكلمة الأولى مشتقة من اسم للمكاتب النمساوى فون ساشر ماسوش Von Sacher Masoch الذى جعل كثيراً من أبطال رواياته يتلذذون من الآلام والمقاساة . والكلمة الثانية مشتقة من اسم الماركيز دى ساد Marquis de Sade الروائى الفرنسى ، الذى كان يصور أبطاله بحيث يتلذذون من أن يقسو على الغير ويؤلموهم . وقد كان هو في حياته الخاصة بالغاً في القسوة ، واتهم بجريمة قتل . وليس من شك في أن هذين الميلين في كثير من الأحيان ، يصطبغان بصبغة جنسية ، وقد فسرهما فرويد في ضوء تقسيمه لدوافع الإنسان

إلى قسمين رئيسيين : دوافع الحياة Eros ، ودوافع الفناء أو الموت Thanatos .
ويستلزم أنهما نتاج امتزاج هذين النوعين من الدوافع ؛ أو بمعنى آخر نتاج
امتزاج الدوافع الجنسية بمعناها الواسع مع دوافع التدمير في الميل السادي ،
وامتزاج الدوافع الجنسية مع دوافع الاستسلام للتدمير في الميل الماسوشي .

وفسرهما مكندوجل على ضوء إرضاء الغريزة الجنسية وغريزة السيطرة
معا في حالة الميل السادي ، وإرضاء الغريزة الجنسية وغريزة الاستكانة أو
الخنوع معا في حالة الميل الماسوشي .

ومهما كان الأمر في تفسير تركيب كل من هذين الميلين ، فليس من شك
في أن توقيع العقوبة من الخارج على الإنسان ، يتضمن إرضاءاً للميل السادي
والميل الماسوشي إلى حد ما . والمفروض أن العقوبة ركن من أركان النظام
الأخلاقي ؛ وأنها تصدر عن المتنفيذين المتحكمين ، من الوالدين في أول الأمر
المسيطرين على الطفل ، إلى المربين والهيئات التشريعية والإدارية والقوة
الإلهية . فعندما يتمثل الطفل والديه بالشكل الذي سبق أن وضعناه ، فإنه
يتمثل أيضا ميلهما السادي ، الذي يصبح بذلك عاملا من عوامل الذات العليا
أو الضمير ، يجعله يقسو ويعاقب الذات من داخل النفس . وبذلك لا يتحكم
الضمير فقط في الذات فيأمرها وينهاها ، ويزجرها ويردعها ، بل إنه يعاقبها
ويوجعها أيضا . وتستشعر الذات شيئا من اللذة في هذا العقاب الذي يوقع
عليها إرضاء للميل الماسوشي . وكأن في ذات كل فرد منا رغبة في أن
تعاقب وتتألم .

قد يبدو هذا أمراً غريباً ، ولكن لو نحن فحصنا في خبراتنا الخاصة لزالنا
هذه الغرابة ، فكم من امرئ يطحن عينيه بيديه ، ويستشعر اللذة من الألم

الناشيء عن ذلك الطحن . وكم من شخص ينتشى من أن يعض غيره أو يضربه ،
أو من أن يتناوله الغير بالعض والضرب . وإن أمثلتنا الشعبية وأغانينا
وأشعارنا للمليئة بالاعتراف بلذة الإيلام والتألم . والمثل في ذلك ما يأتي :

(أ) ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب

(ب) حسدوني وباين في عينيهم من عطفك وحنانك لي

وعذابي في هواك يرضيهم ويأريتك بتعذب في

هنا يفضل الشاعر نشوة العذاب في الحب على نشوة العطف والحنان المجرد .

(ج) فخرقنا نفوسنا في جحيم من القبل

يقرن الشاعر هنا لذة القبل بالجحيم والاحتراق .

(د) علائم المقاساة من الآه والواه والآي ، والآف وغير ذلك ، التي

تمتلئ بها بعض الأغاني والتي تصطبغ بأكبر نشوة وأعظم لذة .

(هـ) قول الشاعر :

مر مامر بي لأجلك حلو وعذابي من أجل حبك عذب

أو ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

لما رمى حدثني النفس قائلة يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمى

جحدتها وكتمت السهم في كبدي جرح الأوبة عندي غير ذي ألم

و — ثم تلك النشوة في تقطيع الأصابع التي وصفها القرآن الكريم في

سورة يوسف في هذه الآية :

« فلما سمعت بمكرهن ، أرسلت إليهن ، وأعدت لهن متكئاً وآتت كل

واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن ، فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن
وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم .
فالنشوة ظاهرة في تكبيرهن ليوسف ، فلما رأيته أكبرنه . وهي نشوة
حسية ولا شك ، غلبت عليهن حتى قطعن أيديهن ولم يشعرن بألم التقطيع .
بل ظلت النشوة غالبية عليهن أثناء تقطيعهن لأصابعهن كما يتبين من ترتيب
الحوادث في الآية ، وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشراً إن هذا
إلا ملك كريم ،^(١)

هذه هي العوامل الأساسية التي تتدخل في تكوين الذات العليا أو الضمير .
وليس هنا مجال مناقشة كل عامل منها على حدة ، فسيأتى الكلام على ذلك في
سياق الأبواب التالية . ولكن لما للعامل الأول ، وهو تكوين الذات المثلى
أو المثل من أهمية خاصة ، فسأتكلم عنه بشيء من التفصيل في الباب التالى
مع الإشارة إلى العامل الثانى وهو تمثل الذات للذات المثلى .

(١) الدليل على أن النشوة التي شعرت بها النساء كانت حسية ، الآية الواردة في السورة
نفسها ، « فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النشوة الالاقى قطعن أيديهن إن ربى
بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه . . » .

الباب الثاني

المثل العليا وتكامل الضمير

تكلمت في الباب السابق عن أربعة عوامل تتدخل في تكوين الضمير الإنساني، هي: (أولا) الذات المثلى أو المثل التي يستشعرها المرء في المتنفذين فيه، والتي يطمح في أن تكون ذاته على صورتها وشاكلتها. و (ثانيا) : تمثله هذه المثل أو ماسمينها بالذات المثلى حتى تصبح جزءاً من نفسه، ونواة ذاته العليا أو ضميره. و (ثالثا) : المشاعر العدوانية التي يستشعرها المرء في طفولته نحو والديه وهما أول المتنفذين فيه، وذلك عندما يقفان سداً منيعاً أمامه يعوقانه عن تحقيق رغباته، وإرضاء غرائزه، وتحول هذه المشاعر نحو ذاته هو، في الوقت الذي يتمثل الوالدين ذاتاً مثلى له، وذلك لضعفه وعجزه عن أن يحقق دوافع تلك المشاعر العدوانية في والديه. وبذلك تصطبغ الذات العليا بهذه المشاعر، فتتطوى على شدة وبأس وقسوة. و (رابعا) : الميل لاستشعار اللذة من التحكم والسيادة والإيلاء لمجرد الإيلاء، وما يتصل به أيضاً من استشعار اللذة من أن تُحكم ذات الإنسان ويقبى عليها، وتؤلم. وهذا يزيد في قسوة الضمير وشدة وبأسه.

وذكرت أنه لأهمية العامل الأول في تكوين الضمير، رأيت أن أفرد له هذا الباب الثاني من الكتاب. أما العامل الثاني فسيأتي الكلام عنه أيضاً في هذا الباب لصلته الوثيقة بالعامل الأول.

الذات المثلى :

ليس التحليل النفسي فرداً في تبيان أهمية هذا العامل في تكوين الضمير. فعلماء النفس على اختلاف مذاهبهم، وعلماء الأخلاق، اتفقوا جميعاً على

ذلك ، بل إنهم جميعا متفقون على أهمية العامل الثانى فى تكوين الضمير ، ألا وهو امتصاص وتقمص الطفل صفات المسيطرين عليه وخصوصا الوالدين .

فلو أخذنا مكدوجل مثلا ، وهو عالم نفسى من العلماء الأثرثذكسسين المعتدلين ، الذى كان لنظرياته وآرائه عن طبيعة الأخلاق وتطورها ، صدى عظيم فى علم النفس الحديث ، نجد أنه يضيف أعظم أهمية على تكوين عاطفة فى الإنسان يسميها عاطفة اعتبار الذات . وهى تنشأ عن إدراك الطفل لذاته الخاصة منفصلة عن الذوات الأخرى أو الشخصيات الأخرى التى تحيط به ، والى عليها تتوقف فكرته عن ذاته . ويبدأ الطفل يهتم بأنواع السلوك الذى يقوم به الآخرون تجاهه ، والذى يعبر عن سخطهم عليه أو رضاهم عنه ؛ إذ يتوقف على ذلك السلوك شقاؤه أو سعادته . وبذلك يتعلم أن يأخذ بوجهة النظر الخلقية لهؤلاء حتى يكسب رضاهم ، ويتجنب لومهم وسخطهم . ويشيد لنفسه مستوى من السلوك ، يحاول أن يصل إليه ، مماثلا لمستوى سلوك الآخرين . وكأن هذا المستوي مثلا له ، يستشعر تدريجيا الرضا عنه ، ويعين نوع عاطفة اعتبار الذات التى تتكون عنده . وكأن هذه العاطفة تصبح مشحونة بالمثل التى تكونت لديه بأخذه إياها عن الغير ، وخصوصا عن أقرب الناس إليه ، وأشدهم صلة به . فإذا ما عمل تبعا لما تتطلبه هذه المثل رضى عن نفسه ، وإذا خالفها استشعر السخط والضيق .

فعاطفة اعتبار الذات ، هى إذن فى نظر مكدوجل ، قوة أقرب ما تكون إلى ما نعرفه بالضمير — هى التى تنظم سلوك الإنسان ، أو على الأقل ، إنها تجعله يحكم على سلوكه فيرضى عن نفسه ، إن كان سلوكه قريبا من المستوى الذى رسمه وحدده ، موجهها فى ذلك بمستوى سلوك الآخرين ، وخصوصا

والوالدين في أول الأمر ، أو ينقده ويشعر بسخط داخلي إن كان بعيدا عن هذا المستوى .

وإذا كانت هذه العاطفة معدومة ، أو كانت ضعيفة ، يفقد الإنسان أهم ركن تستند إليه الأخلاق ، ويسير في الحياة متخبطا وراء دوافعه الطبيعية المختلفة أنى وجهته ، وكأن ليس له من إرادة (١) .

ونتبين من هذه العجالة البسيطة ، التي أتينا بها لكي نعطي فكرة مختصرة بسيطة عن رأى زعيم من زعماء علماء النفس ، طالما وقف معارضا ، بل ومعتقدا قاسيا لكثير من آراء ونظريات التحليل النفسى (٢) — نتبين منها أموراً على جانب كبير من الأهمية ؛ فهو يوافق التحليل النفسى على تكوين الذات . وعلى تأثر هذه الذات بالمسيطرين المتنفذين في الطفل ، وعلى تشرب الطفل مثل هؤلاء ، وتكون قوة خاصة فيه هي عاطفة اعتبار الذات ، تعين سلوكه ، وتشعره بالرضا إن سلك سلوكا يساير المثل المتضمنة فيها ، وتشعره بالتأنيب والوخز والذنب والضيق ، إن تعارض سلوكه معها .

وكذلك لو أخذنا آدلر ، منشىء مدرسة علم النفس الفردى (٣) ، تلك المدرسة التي جعلت الذات نواة بحوثها ، نجده قد سبق مدرسة التحليل النفسى في دراسة تطور المثل ، وفي كيفية تأثير فينامس احترام الذات وتوجيهها بأى شكل من الأشكال ، شعوراً بالسخط والغضب .

(١) أنظر الباب السابع « نمو الشعور بالذات وعاطفة اعتبار الذات » من كتاب Social Psychology, by W. Mc. Dougall

(٢) أنظر كتاب Psycho-Analysis & Social Psychology by W. Mc' Dougall

فهو ملء بانتقادات للتحليل النفسى .

(٣) Individual Psychology

إن أهم دافع في حياة الإنسان عند آدler ، هو شيء أقرب إلى إرادة القوة عند الفيلسوف الألماني نيتشه Nietzsche . وهو دافع يستحث المرء لأن يعلو ويتغلب ويتحكم ، ويؤكد سلطانه وعظمته . ولكن سرعان ما يشعر الإنسان بالآلم ، خصوصاً في عهد طفولته العاجز ، عند ما يدرك أنه قليل الشأن ، ضعيف الحيلة بالنسبة لغيره . ولذلك يشيد لنفسه صورة موجهة أو هدفاً لحياته^(١) ، أو مثلاً أعلى يتمنى لو يكونه . وهذه الصورة الموجهة ، أو هدف الحياة يحدد سلوكه ، ويعين تصرفاته ، ويرسم نمط حياته أو أسلوب الحياة^(٢) الذي يسير عليه . . وهو يشبه إلى حد كبير ما سماه التحليل النفسي بالذات المثلى . ولكن هناك شيئاً من الاختلاف الأساسى بين فكرة مدرسة التحليل النفسى ، ومدرسة علم النفس الفردي عن الذات المثلى الأولى ، والصورة الموجهة للثانية .

فالذات المثلى عامل خلقى أساسى يقبنى بها المرء المثل الخلقية في محيطه . بينما أن الصورة الموجهة هى نتاج الأناية الأولية الأصلية للمرء ، تتاج حاجته الفردية لأن يتحكم ويتفوق .

وعلاوة على ذلك فالصورة الموجهة إنما تتكون في الفرد وتحدد لدرجة كبيرة ، نتيجة محاولاته أن يعوض عن نقصه وقصوره . إن التأكيد على التعويض ، هو لدى آدler ركن هام من الأركان الأساسية في مذهبه .

ففي بعض الحالات ، تكون هذه الصورة الموجهة أو هدف الحياة حقيقياً واقعياً ، يثير باستمرار دافع النجاح ، إما بأن يتغلب الإنسان على مواضع

(١) الصورة الموجهة Guiding Fiction ، وهدف الحياة Goal of Life

(٢) نمط الحياة أو أسلوب الحياة Pattern of Life or Style of Life

ضعفه ، ويقوى مرا كز نقصه ، كأن يمرن الشخص الضعيف البنية عضلات جسمه ، أو يكثر الطالب المتأخر من ساعات دراساته ؛ وإما أن يقوم المرء بالتعويض عن قصوره في نواح أخرى ، كأن يعوض التلميذ عن ضعفه الجسمي بتفوقه في دروسه وأعماله .

وفي بعض الحالات ، قد تكون الصورة الموجهة أو هدف الحياة ، بعيداً عن الواقع بعداً شامعاً ، فلا يكون بذلك حافزاً لمحاولات جدية يقوم المرء بها لتقوية مواطن ضعفه ، أو التعويض عنها بالبروز والظهور في نواح أخرى غيرها . فيلجأ المرء إلى الخيالات والأوهام ، يحقق فيها ما يشاء ، ويحاول عن طريقها أن يكون لنفسه قدراً ، ويجعل لذاته قيمة ، بعد أن سدت حياة الواقع الطرق أمامه . والمثل في ذلك مثل ذلك الطفل الفقير الذي تكون هدف حياته على صورة الاستمتاع بما يستمتع به الأطفال الأغنياء من الحوز على ملابس أنيقة ، ونقود كثيرة ، ولعب متعددة ، وقصر باذخ ، وغير ذلك . فهو يلجأ إلى خياله يبنى فيه ما يشاء ، ويستمد منه كل ما تصبو نفسه إليه ، ويحقق فيه كل ما تصبو ذاته إليه من رغبات .

والتحليل النفسي لا يهتم اهتمام المدرسة الفردية بالتعويض عن النقص في دراسته للذات المثلى . حقاً ، إن مدرسة التحليل تعترف بوجود هذا الشعور بالنقص ، ولكنها تعتقد أنه يلعب دوراً ثانوياً في تعيين الأهداف الخلقية ، وتحديد سلوك المرء واتجاهاته في الحياة . بل إن هذه المدرسة ، ترى أن الشعور بالنقص إنما هو نتاج المثل الخلقية ، وليس سبباً لوجودها وتكوينها . وذلك لأن الفشل في الوصول إلى تحقيق هذه المثل ، يأتي معه بالشعور بالنقص والذنب ، وضالة قيمة المرء ، اللهم إلا إذا عُلِّلَ الفشل تعليلاً معقولاً ، أو بُرِّرَ بشكل من الأشكال .

وعلى كل حال ، فإنه يتراءى لنا أن مدرسة التحليل النفسى أعمق فى دراساتها وبحوثها ، وأكثر ثروة فى آرائها ، من مدرسة علم النفس الفردى .

ويعلق جماعة التحليل النفسى أهمية كبرى على نوع الذات المثلثى التى تتكون فى المرء بالنسبة لذاته . فإذا كان الفرق بينهما شاسعا ، أثار الشعور بالنقص والذنب والسخط ؛ إذ ترى الذات أنها أعجز من أن تصل للذات المثلثى ، وأضعف من أن تقطع المسافة التى تفصل بينهما . ويفسر لنا هذا ، كيف أن عدداً غير قليل من الناس يلومون أنفسهم دائماً ، حتى ولو أحرزوا شيئاً من النجاح فى حياتهم ، بينما لا يلومون غيرهم ، إذا ما أحرزوا النجاح نفسه ؛ وذلك لأنهم ينتظرون من أنفسهم أكثر بكثير مما ينتظرون من غيرهم ؛ ولأنهم ينظرون للغير كما لو كانوا من معدن غير معدنهم ، فلا يرجى منهم أن يترقوا فى سلم الحياة درجات بقدر الدرجات التى يجب عليهم هم أن يصعدوها .

إن كثيراً من الشقاء الذى ينهش فى نفوس بعض الأفراد ، ينشأ من أنهم رسموا لأنفسهم مستوى شاهقاً رفيعاً . وربما كان هذا امتداداً لنوع المعاملة التى عاملهم بها والدوهم عند ما كانوا أطفالاً صغاراً . فبعض الوالدين يتطلبان من الطفل الصغير الكمال فى كل شيء ، فى أعماله وسلوكه وكلامه ، ويحاسبانه على كل هفوة تصدر عنه حساباً عسيراً . وينظران إليه كما لو كان راشداً متفهماً مكتمل العقل ناضج القوى ؛ فينشأ مثل هذا الطفل ساخطاً متبرماً لا يقنع بأى شيء ، مغموراً دائماً بشعور من الخزي والخجل والسخط ؛ إذا ارتقى إلى منصب فلا يزال يرى أنه فى مركز أقل بكثير مما هو جدير به ؛ وكلما غمرته نعمة ، شعر بأنه أحق بما يفوقها درجات . إنه لا يستطيع أن يتذوق طعم السعادة

والرضا ، بل أنه ليشع الشقاء على غيره ، وينشر البؤس والتعاسة بينهم ، بانتقاده المستمر لسلوكهم وتصرفاتهم مهما كانوا على خلق كريم . وقد يصبح هذا الشخص عصائياً Neurotic ، دائم السخط على المجتمع ، إذ لا يجد فيه الفضيلة التي يهواها ويتعشقها ويعبدها ، دون أن يمارسها في الغالب ؛ نافرأ من الناس ، لأنه يشعر بأنهم أقل منه شأنًا بكثير ، وأخط من أن يمتزج بهم ؛ أناانياً يعمل على أن يحقق رغباته الخاصة ، إذ يراها أرفع الرغبات وأسماها ، وأجدرها بالتحقيق دون سواها . ويرى نفسه في ذاته المثلى أعلم وأفضل وأرقى من في الوجود ، بينما قد يكون في ذاته الواقعية أجهل وأرذل وأخط من في الوجود .

ليست الحياة العامة بالمكان الذي يصلح لمثل هذا الشخص ، ولكنه بحاجة إلى إصلاحية يعالج فيها من مرضه النفسي ، أو إلى دير يناجى فيه السماء ، ويتغزل في المثل الرفيعة التي أبدعها وأودعها فيها ، بينما يزحف على الأرض بذات واقعية حقيرة سقيمة .

إن العلاج الناجع للحالات العصائية ، لا ينحصر فقط في أن تضحى الذات السفلى بكثير من مطالبها التي لا يمكن أن تتصل بحياة الواقع ، بل يتضمن أيضاً تقليلاً من المطامح والمطالب البعيدة بعداً شاسعاً عن الواقع ، للذات العليا أو الضمير .

وقد يقال خطأ إن في الاجراء الأخير أثراً غير خلقي للتحليل النفسي . ولكن يجب أن أكرر هنا ، إن وضع هدف عال جداً للتحصيل الشخصي أو النقاء الخلقي ، لا يتناسب مع كفاية الإنسان الحقيقية وإمكاناته ، لا ينجم عنه قيمة ذاتية كبيرة للإنسان ، وإنما يتمخض عن تبرم وسخط وبؤس له ، وحقد دفين شديد على الغير مهما كانوا ، وتعاسة لمن يلوذون به من أولاد يريهم ،

أو تلاميذ ينشئهم ، أو مرؤوسين يسيطر عليهم ؛ بل إنه قد يجعل هؤلاء جميعا
يُبغضونه ويثيرون ضد مثله العليا ، فيزداد شقاؤه شقاءاً .

وكما أن المثل أو الذات المثلى تكون رفيعة ، فإنها تكون أيضاً وضعية .
والمثل في ذلك ، الذات المثلى التي يتمثلها المرء من بيئة فاسدة أو مجرمة ؛ من
أبوين منحطين في أخلاقهما ، وضعيعين في صفاتهما وسلوكهما .

وحق لو كانت الذات المثلى التي تقمصها الإنسان من بيئته الأولى طيبة
صالحة ، فإن اختلاطه مع قرناء سوء ، أو اتصاله بأوساط فاسدة ، قد تشربه
مثلاً تناهض مثله الأولى ، فيحدث بينهما صراع داخلي ، ربما ينتهي لعدة
أسباب ، ليس فقط بتغلب المثل الجديدة ، وظهور الذات المثلى الأخيرة ، بل
بإضعاف الضمير قوة متحركة في سلوك الإنسان ، وإعطاء الفرصة للذات
السفلى أن تمسك زمامه ، وتقوده إلى الحضيض . وسأرجع إلى هذا بالتفصيل
في الباب الأخير . ولكني أود أن أؤكد من الآن على هذه النقطة
المستثولين عن تربية الناشئة خصوصاً في دور البلوغ والشباب .

بل أود أيضاً أن أؤكد عليها للشباب العاقل الذي نشأ نشأة طيبة ،
فأنصح به بأن يبتعد عن كل العوامل والحوافز التي تنخر في تلك النشأة ، وفي
الذات المثلى الطيبة التي تمثلها في بيئته ، والتي من شأنها أن تهدد أمنه النفسي ،
وتزعزع تكوينه الخلق ، وإذا به ينزلق إلى الهاوية دون أن يشعر ، فيجلب
بذلك على نفسه شقاءاً ما دونه من شقاء .

ونجد بين الناس من تعوزهم الرغبة في الظهور بين إخوانهم ، والارتقاء
بأنفسهم ، خصوصاً إذا لم يكن هناك حافز خارجي لذلك ، مثل الحاجة
لإرضاء أب طموح أو أم طموحة ، أو كسب عيش ، أو إرضاء حبيب ،

أو تكفل أولاد . إن هؤلاء يقنعون بأى قسط من النجاح يحرزونه مهما كان ضئيلاً غير متناسب مع قواهم واستعداداتهم . وقد نجد بعض الأفراد يخشون متاعب الحياة ، ويتهربون من مسئولياتها ، ويعيشون أطفالاً صغاراً مهما امتد العمر بهم . وقد يكون المسئول عن ذلك أباً أو أما لا تريد أن تفتطم ابنها فطاماً نفسياً ، بل تريده أن يكون دائماً طفلاً صغيراً ، معتمداً عليها ، يجلس فى حجرها ، ويمسك بذيل رداها .

وقد يبرر البعض فتور محاولاتهم لتحقيق مثلهم والسير بالتدريج نحو ذواتهم المثلى ، بالمبالغة فى تصوير العقبات التى تقف فى طريقهم ، أو المبالغة فى بعض ما يقاسون من نواحى ضعف لاسبيل لهم للتغلب عليها ، مثل ضعف البنية ، أو الفقر المدقع ، أو فساد الأحوال الاجتماعية ، أو عدم وجود وساطات إلى غير ذلك .

وقد يكون البعض على درجة من الكسل أو القناعة بحيث لا يستطيعون أن يرسموا لأنفسهم ذواتاً مثلى .

ويمكن أن نقول فى هذا الصدد إن هناك طريقتين للتقليل من الشقاء الناجم عن عدم تحقيق الفرد لرغباته : أولاها بزيادة المجهود الذى يقوم به ، حتى يستطيع أن يحقق أكثر ما يمكن . وثانيتهما : بأن يقلل من المغالاة فى رغباته ، بحيث يقنع بالوصول إلى أقل مما تترخر به نفسه منها .

وقد يكون الأفضل للفرد أن يرسم ذواتاً مثلى . ترتقى الواحدة منها على الأخرى ، وتؤدى كل منها إلى ما تليها . أما رسم ذات مثلى عالية جداً ، أو منحطة جداً بالنسبة لقدرات الشخص ، فإن ذلك مدعاة للكسل ، ومشار لفتور الهمم والتحصيل ، علاوة على ما يسببه من متاعب نفسية كثيرة للإنسان ، أهمها القلق النفسى المريع الذى تنجم عنه أمراض خطيرة .

الصلة بين الذات المثلى والمجتمع :

إن الذات المثلى شيء غير واقعي ، ولكنها تكون في الغالب على شاكلة الذات . وتتفاعل الذاتان طول حياة الإنسان . وينعكس هذا التفاعل بينهما على صلات الإنسان بالمجتمع ، التي تشبه إلى حد كبير ، صلات الطفل بوالديه . ففي أثناء الطفولة يستمتع المرء بحب والديه ورضاهما إذا أطاعهما ، وسار تبعاً لما يرغبان ، ويقاسى عقابهما وسخطهما إذا ما خالفهما فيما يرغبان . ومعنى ذلك أنه يستمتع الحب والرضا إذا كان صالحاً طيباً ، ويخشى الغضب والعقوبة إن كان عرماً عاصياً . ونجد مثل هذه الصلة بين الذات والذات المثلى التي تمثل الوالدين واتجاهاتهما السلوكية والخلقية . ونستبين هذا في سلوك الطفل الصغير عند ما يبدي رضاه عن نفسه ، إذا سلك السلوك الذي يرضى ذاته المثلى (الممثلة للوالدين) فيربت نفسه ، ويتسم لنفسه كما يفعل والداه معه ، وعندما يعاقب نفسه كما يعاقبه والداه ، فيشتت نفسه ، أو يصفع يده ، أو ينزوى في ركن من الغرفة ، إذا فعل فعلة تثير سخط ذاته المثلى ، وكأن شعوراً بملكته في هذه الحالة بأنه ضعيف حقير القيمة ، وكأنه يعاني صراعاً داخلياً ؛ بينما يشعر في الحالة الأولى ، أنه قوى مستقيم ، أهل للتقدير والحب ، وأن هناك توافقاً داخلياً في نفسه بين ذاته وذاته المثلى . ويشبه هذا التوافق بين الذات المثلى والذات ، حالة الأب الفخور بابنه ، الذي يفعل كما يشاء الأب في رغبة وطاعة وثقة .

إن الصلة بين الذات والذات المثلى وانعكاسها على المجتمع ، تظهر في حالتين متطرفتين : حالة الملائنسكوليا (Melancholia) أو ما تسمى بالماليخوليا ، أو داء السوداء ، أو الاكتئاب ، أو الجنون الصامت ؛ وحالة المانيا Mania أو جنون العظمة .

ففي الحالة الأولى نجد أن الفرق بين ذات الشخص وذاته المثلّي كبير جداً . ولذلك فإن المريض بهذا النوع من الاضطراب العقلي لا يكون فريسة فقط للهمم والاكتئاب الشديد ، ولكنه غالباً ما يتهم نفسه بجرائم وذنوب كثيرة ، لا يمكن أن تغتفر . بل إنه كثيراً ما يسمع صوت ضميره ، على شكل هذر من تأنيب وتقريع وسباب .

وقد نجد شيئاً قريباً من هذا الهذر على شكل آخر ، في بعض الذين يقاسون حالات نفسية مرضية أخف وطأة من المايلخوليا : مثل ذلك المريض الذي يهم بارتكاب جريمة ، فإذا به يرى كأن أباه أو أمه واقفة أمامه ، ترنو إليه بعين ملؤها الحزن والكمد . وفي بعض الحالات الأخرى الأخف درجة من هذه ، قد يملأ الشخص عند ما يهم بارتكاب جريمته ، خوف من الله الذي يرى كل شيء ، فيتخيل أية ظاهرة من الظواهر مثل الرعد أو الشعور بألم في جسمه ، كأنه إنذار من قبل الله ، ونوع من التحذير والردع . بل قد يتابع الضمير الشخص ويلاحقه في أحلامه ، إذ يظهر له على شكل ضوء مخيف يتبعه ، أو عيون كثيرة تحيط به ، وتصوب عليه ، وتقنق أثره .

أما في الحالة الثانية : حالة المانيا Mania ، فإن المريض يشعر بأنه قوى عظيم في قوته ، صالح كامل في صلاحه ، وكأن ليس في الحياة من أمر يصعب عليه أن يقوم به وينفذه . وهنا تتحد الذات بالذات العليا أو المثلّي ، على عكس ما يحدث من الانفصال الواضح بينهما في المايلخوليا . وإذن يمكننا أن نعد أولئك الذين شطحوا من أهل الصوفية ، فشعروا بأنهم الخالق أشخاصاً مرضت عقولهم ، واعتلت نفوسهم ، وأصيبوا بجنون العظمة ، عندما اتحدت ذات الواحد منهم بذاته المثلّي التي ربما كان الخالق نواتها ، تماماً كما نعد الشخص الذي يشعر بأنه نابليون أو هتلر أو النبي المنتظر مصاباً بهذا المرض العقلي .

وقد يحدث أن يتناوب الاتحاد والانفصال بين الذات والذات العليا في ذلك النوع من الاضطراب العقلي المسمى manic depression أو اكتئاب العظمة ، أو سيكلوثيميا Cyclothemia ، حيث تنتاب المريض مشاعر فظيعة من الحقارة والضعف ، ومشاعر هائلة من القوة والعظمة والصلاح . ويحدث هذا إلى حد ما في كل فرد تقريباً .

وبالرغم من أن الذات العليا تحل محل الوالدين أو ذوى النفوذ ، وتقوم بوظائفهم من الأمر والنهى ، والرضا والسخط ، فإن الإنسان ، إذا كان سوياً ، لا يستطيع أن يحيا مستقلاً عن حكم المجتمع الذى يحتك باستمرار به ، متجاهلاً رضاه عنه ، أو سخطه عليه . إذ ليس أسمى على الإنسان من أن يجسد نفسه منبوذاً من المجتمع ، وحيداً في عالم خاص به من آراء ومعتقدات .

وتتصل حاجة المرء هذه إلى رضا المجتمع والناس الذين يعيش معهم ، بحاجته في عهد طفولته إلى رضا والديه . كما يتصل أيضاً همه وقلقه وهلمه ، عندما يجسد نفسه منبوذاً من المجتمع بهمهم وقلقه وهلمه ، عند فقدان حب والديه له ، وحدهما عليه ، ورضاهما عنه ، في السنوات الأولى من حياته .

وليس من السهل في أثناء حياة الإنسان ، في طفولته ، ورشده ، أن نميز فيها بين العناصر الخلقية الاجتماعية ، والعناصر الانانية المتصلة ببقائه والمحافظة على حياته . فانفصال الطفل عن والديه ، ربما يثير فيه قلقاً شعوره بالآمن والطمأنينة ، وبذلك يغمره قلق من النوع البيولوجى أو الواقعى . ولسكن ، زيادة على ذلك ، يوجد قلق من نوع آخر يتسبب عن سخط الوالدين ، وفتور حبهما له ، وعدم إظهارهما علائم الرضا عنه . فإذا حدث ما يثير هذين النوعين من القلق ، كانت حياة الطفل تعسة بأسفة شقية . والمثل في ذلك انفصال الوالدين أو أحدهما ، عن الطفل بالطلاق مثلاً ، وعدم اهتمام الوالد المعاشر

للطفل به ، نتيجة انشغاله بزواج جديد ، لا يشعر الطفل بحنان ، أو عطف ؛ بل ويعمل على أن يسحب حنان أبيه أو أمه منه . وثمة مثل آخر : مثل الوالدين الأنانيين أو اللذين ترغبهما الحياة — دون أن يستطيعا مقاومتهما — على ألا يكتثرًا بطفلهما الا كتراث اللازم ، ويمداه بالرعاية والعناية الواجبة بل يتركانه في أيدي مربيات جاهلات قليلات الحنان والعطف ، أو موزعات لحنانهم وعطفهم على عدد كبير من الأطفال يحتضنهم (كما هو الحال في دور الحضانة)^(١) ، بحيث لا يصيب الواحد منهم سوى قسط صغير ، لا يكفي لأن يشعره باطمئنان أو أمن ، بل قد يشعره بشيء غير قليل من القلق والجزع وربما الهلع . وأمثال الآباء والأمهات الأنانيين ، أولئك الذين يتلهون عن الطفل بالاستمتاع بحياتهم ، بين خروج زيارات متكررة للأصدقاء ، وارتداد للهلاهي ودور التسلية ، والانغماس في الحفلات العامة والخاصة . ومثل الآخرين أولئك الذين يجذبهم كسب العيش إلى خارج منازلهم ، بحيث لا يرون أطفالهم إلا لماما .

ونجد هذين النوعين من القلق في حياة بعض الناس ، بعد أن يكبروا وينضجوا ، مثل الموظف الذي يفصل من وظيفته ، أو المجرم الهارب من العدالة ، أو الذي قامى العقوبة التي وقعها عليه القضاء بحق ، ثم خرج إلى الحياة ، ليجد الناس يبتعدون عنه ، وينفرون منه ، ولا يقبلونه صاحباً ، أو عاملاً ، وكأنهم قد وصموه إلى الأبد بوصمة العار ، وحكموا عليه بأن يعيش بقية حياته بعيداً عن حظيرتهم ؛ ومثل الحبيب الموله المهجور ، والمرأة المطلقة ، والعاطل الذي لا يجد عملاً .

(١) أقصد دور الحضانة التي تضم الطفل في سن مبكرة جداً مثل سنة أو سنتين والتي يبقى الطفل فيها نهائياً وليلاً .

إن كل فرد منا لديه حاجة لأن يحتاج إليه ، وهي امتداد لحاجة الطفل الصغير إلى الأمن والطمأنينة باستشعاره عطف والديه عليه ، وإحساسه بأنهما بحاجة إليه ؛ أو بلسان علماء النفس الأرثوذكس ، إنها أثر لدافع عاطفة اعتبار الذات التي تعمل على أن يشعر الإنسان بأن له قيمة واعتباراً في الحياة .

فالعاطل الذي لا يجد عملاً لمدة طويلة ، قد ينمو فيه شعور بحقارة نفسه ، وضآلة قيمته ، وعجزه عن أن يندمج في المجتمع ، أو أن يجذب المجتمع إليه . وقد يؤدي هذا الشعور إلى أن ينظر للمجتمع نظرة عداوة ، فيهاجمه ، ويكسر نظمته ، ويرغمه على أن يهتم به ، بجموحه وإجرامه ؛ أو قد يتضخم في نفسه الشعور بالحقارة والعجز حتى يفنى ، أو يفنى نفسه بنفسه .

وقد يكون من أهم العوامل التي تساعد على علاج الحدث الجامح ، بل في بعض الأحيان ، قد تكون الطريقة الوحيدة للعلاج ، أن ندججه في مجموعة من الناشئين القريبين من عمره ، وأن نثير اهتمامه وحماسه إلى عمل مشترك يقومون به ، ويضطلع هو بنصيب فيه .

وقد تصلح الطريقة نفسها مع المجرم الراشد ، بل ومع عصابة من مجرمين . ومن هنا نستطيع أن نلصق أحد الأسباب النفسية ، التي من أجلها تندلع الثورات في الشعب ، وتتشب الحروب بين الشعوب المختلفة ؛ فترفع الحكام على الشعب ، وإهمالهم لشئونهم ، وضغطهم لحريته التي كفلها له القانون والتشريع السائد ، ونظرتهم له كأنه عبد مستعبد ، وغير ذلك مما يشعر الشعب بضآلة شأنه ، واضمحلال قيمته ، كل أولئك يدفع الشعب لأن يجمع ويكسر النظم الاجتماعية ، ويحطم القوانين ، فينتشر بذلك الفساد ، وتعم الفوضى ، حتى يسترد الشعب اعتباره ، أو يشعر بأن له قيمة وشأناً .

ومن هنا نستطيع أيضاً أن نتبين الأثر الفظيع في الأمن الدولي لاستعمار

الشعوب بعضها بعضاً . فالاستعمار بصورة المختلفة من احتلال أو وصاية أو حماية أو انتداب ، معناه إشعار الشعب المستعمر بضعفه وتفاهة قيمته بالنسبة للشعوب الحرة . وهنا أيضاً يجمع الشعب المستعمر ، طال أمد الاستعمار أو قصر ، وتشتعل فيه الثورات جهراً ، أو سرّاً ثم جهراً ، حتى يرجع إليه الشعور بأنه شعب ذو قيمة ، وأنه كفيلاً بأن يستمتع بحياة الحرية ، ويعيش في كرامة وأمن وطمأنينة .

وقد دلت البحوث التي أجريت في الانتحار على أن شعور المرء بأنه محتاج إليه ، وذلك بقيامه بمسؤوليات ذات بال في الحياة ، يجعله في مأمن من أن ينتحر ، إذا ما ادهمت عليه بعض المصائب ، مثل فقدان عزيز ، أو ابتلائه في مركزه أو ثروته ، أو غير ذلك ؛ بينما أن مجرد شعوره بأن عمله ، أو وجوده في الحياة ، ذو قدر ضئيل ، وأهمية قليلة ، يكفي لأن يخل توازنه ، إذا ما أحاطت به ظروف كثيفة ، أو دهمته مله أو مصيبة ، فيقضى على نفسه بنفسه .

ومن هنا أيضاً نلمس جانباً من جوانب أهمية الروابط العاطفية أو قل الروحية ، بين الإنسان وغيره ، تلك الروابط الدائمة التي تضع على عاتقه بعض المسؤوليات ، وتشعره بأنه محتاج إليه ، مثل الصلة بينه وبين والديه ، أو إخوة له ؛ ومثل الصلة بينه وبين زوجته ، أو أولاده ؛ أو بينه وبين علم أو مبدأ يعتنقه ، ويكرس أكثر جهوده له . إذ أن هذه الروابط تثير فيه الشعور بأنه محتاج إليه ، وبأنه من أجل ذلك ذو شأن وقيمة . بينما أن انعدامها أو ضعفها يجعل موقفه من الناحية النفسية ، موقف العاطل الذي أشرنا إليه من قبل ، وتترامى له حياته تافهة رجراجة غير متركزة على أساس متين ... وإن هي تركزت على أساس مادي ، مثل زواج من أجل المادة فقط ، أو جمع ثروة ، أو الارتقاء في مناصب مادية ، فسرعان ما يتآكل هذا الأساس بمضى الزمن ، أو يرتج ويترنح ، لأن

المادة سريعة التبدل والتغير ، وكذلك تكون روابط الإنسان بها . . وإذا به يشعر بفراغ فظيع رهيب ، يجعل فؤاده خائراً ، وعقله حائراً ، ونفسه قلقة مضطربة . وإذا بالذات العليا تتفكك قواها ، وينفطر عقدتها . . وإذا بالذات السفلى ، تجد الفرصة سائحة ، لأن تمسك بزمام الإنسان ، وتوجه سلوكه . وبذلك يقع فريسة لانهلال نفسى وجسمى معا .

ويجب أن أذكر هنا أن أهم هذه الروابط هي الروابط الزوجية ، إذا كان الزواج قائماً على أساس من تفاهم وتعاون فى تحمل مسئوليات الحياة ، وجعلها أسعد ما يمكن . وذلك لأن الروابط الزوجية أكثر الروابط دواما ، لاستنادها إلى أسس قوية من عواطف وغرائز رئيسة ، ولأنه يشمر نسلا يزيد من شعور كل من الزوجين بقيمته وأهميته ، عند ما يرى النسل ينمو ويشتد ، فينمو تبعاً لذلك شعور الزوج بأهمية حياته ، وقيمة وجوده ، وخطورة رسالته .

بل إننا لنلمس فى بعض الحيوانات التى تستطيع أن تستشعر عاطفة بدائية من الحب ، ويكون الفرد منها روابط مع غيره من نوعه من الجنس الآخر ، نلمس أن حياة كل منها تصبح ذات قيمة خاصة لوجود تلك الروابط . وكأنه قد ازداد نشاطاً وحيوية وحباً فى الحياة . والمثل فى ذلك الحمام واليمام والكلاب . بل نجد أن فقدان هذه الروابط لسبب من الأسباب ، يجعل حياة الفرد منها كئيبة ضحلة ، وكأنها خلت من كل معنى وقيمة ، حتى إنه ليعاف الطعام ، ويعانى الضعف والفتور إلى أن يهلك ، وكأنه أراد فعلاً أن يهلك ويتخلص من الحياة .

يجب أن أؤكد للشباب وأهلهم ، خصوصاً فى هذا العهد الدقيق الذى

يمر به الشرق اليوم ، والذي تتزعزع فيه بعض المثل التي أشر بها الناس وتمثلوها من قديم ، أن الزواج أكبر مآمن للإنسان من أن يحيا حياة باردة فاترة ، ومن أن يتضامل اعتباره لذاته ، كائن له قيمته وشأنه ، وله رسالة سامية حملته الطبيعة إياها منذ بدء الخليقة ، وأودعت دافعها في تركيبه العقلي ، وشحنته بأعظم قوة وأكبر طاقة ، ومن أن يدب في فيافي الحياة ، ديب الضال الغارق في لجج لا يتبين من صخبها شاطئاً يرسو عليه ، ولا يرى خلالها نوراً يهتدى به إليه . . . ولذلك كان الزواج نظاماً اجتماعياً منذ فجر التاريخ الإنساني . . . ولذلك أيضاً باركته الأديان السماوية ، وقدرته المذاهب البشرية . ولكن أصبح المآمن ويالأسف مثاراً للخوف ، وأضحى الملجأ عرضة للعصف . . . وليس هذا إلا مظهراً للخوف الداخلي والعصف النفسي اللا شعورى . إنه عرض للصراع العقلي الذي تزخر به نفوس بعض الشباب في دور التطور الذي يمر به الشرق الآن ، أو ما يمكن أن نسميه بدور الانتقال من حياة الدكتاتورية الذكورية ، التي يبدو الرجل فيها كل شيء ، والمرأة لا شيء أو بعض الشيء ، التي فيها الرجل هو السيد الحاكم ، والمرأة مسودة محكومة - إلى حياة جديدة تلمع فيها مبادئ فريدة ، تقوم على أساس ديموقراطى من تعاون الرجل والمرأة معا في الحياة ، تعاوناً روحياً واجتماعياً ، وربما مادياً أيضاً .

فالرجل ، ولما يتمثل تماماً ، المبادئ الحديثة تمثلاً راسخاً بحيث تصبح جزءاً ثابتاً في تركيبه النفسى ، يطغى على ما تمثله من قبل في ضميره من التقاليد القديمة ، يخشى أن تزيحه المرأة عن العرش الذى استوى عليه قروناً عديدة ، وأجيالاً مديدة . وتخشى المرأة ، وهى تتمثل هذه المبادئ أسرع من الرجل ، لأنها تنطوى على إعلاء شأنها ورفع قيمتها ، أن يعاشرها الرجل على هدى التقاليد القديمة ، فيكون أمراً ناهياً ، يريد لها على أن تفنى شخصيتها في شخصيته .

وعلى أن تجعل كرامتها شيئاً ثانوياً بالنسبة لكرامته .

ويحدث هذا الصراع أكثر ما يحدث ، ويعانيه أشد من يعانيه ، المثقفون من الجنسين ، لأن الثقافة تشرب الذات العليا بمثل جديدة ، قد تتعارض مع ما تمثلته من قبل ، وأشربت به من الوالدين وتقاليد الأسرة وتقاليد المجتمع السائدة . وبسبب هذا نجد التهيّب من الزواج والتخوف منه بين الشباب المثقف أكثر من وجوده بين غيرهم .

وهذا الصراع الداخلي الذي يحدث في الذات العليا بين ما تمثلته من تقاليد قديمة ، وما تتمثلة من مبادئ حديثة ، هو السبب الحقيقي الخفي لتهيّب الزواج ، والتردد إزاءه ، أو الإحجام عنه . أما ما يبديه الشباب من أسباب لذلك ، كالعجز المادي ، أو ترفع الفتاة المثقفة عن القيام بمسؤوليات الحياة الزوجية ؛ وما تبديه الفتاة من رغبتها في أن تبقى ثمار ثقافتها بالنزول إلى ميدان الحياة ، وعجزها عن أن تقوم بمسؤوليات الزواج ، مع مسؤوليات الحياة العملية خارج المنزل ، أو من أن الزواج يربطها إلى البيت الضيق المحدود ، فتصدأ مواهبها ، وتضيق مآربها . . . ليس كل ذلك إلا تبريراً للصراع الداخلي الذي تجيش به نفس كل منهما . . . والذي كثيراً ما يدفعه أو يدفعها إلى حياة زوجية بائسة لا انسجام فيها ولا اتفاق .

ولست مزعماً أن أتكلم هنا عن سيكولوجية الزواج ، ولكن أود فقط أن أقول إنه من الخير للفتاة أو الفتى أن يواجه ذلك الصراع الداخلي عندما يفكر في الزواج ، ويعمل على التوفيق بين قطبيه ، ويختار شريكه حياته في ضوء هذا التوفيق . كما أنه من الخير أيضاً له أن يساعد أهله على اختيار زوجته اختياراً يجعل حياته وحياتها سعيدة ، غير متحيزين في ذلك لرغباتهم

الشخصية أو تقاليدهم الخاصة ، ففتاهم ليس صورة مطابقة لهم ، وزمانه وعصره لا يماثلان زمانهم وعصرهم . فمثلا خير للفنّي المتمسك بالتقاليد القديمة أن يتزوج فتاة لا تجد غضاضة في أن تعيش معه في ظل هذه التقاليد . . . وخير للثائر على هذه التقاليد أن يبحث عن فتاة ثائرة عليها ، وهكذا .

عدم نظائر الذات المثلى :

يتبين لنا مما سبق أن ذكرناه في مثال الزواج وأهميته في حياة الإنسان ، أن الذات المثلى ، أو المثل التي تتكون منها ، قد تتعارض وتتصارع . إذ رأينا أن التقاليد التي يمتصها المرء من أهله ، فتصبح بذلك مثلاً تدخل في تكوين ذاته العليا أو ضميره ، ويسير على هداها دون أن يشعر ، قد تتعارض مع مثل أخرى ربما تنشأ عن مبادئ جديدة تسود في محيطه ، وقد يتمثلها الإنسان أيضا .

ويتضح من هذا أن الذات المثلى ، التي هي أهم عامل في تكوين الضمير ، بل هي نواته التي يشربها الإنسان عن المتنفيين فيه ، وخصوصا والديه في أول الأمر ، ليست تركيباً منسجماً ، وقوة موحدة ، توجه الإنسان في الحياة وجهة واحدة . . . وذلك لأن وجهات ذوى النفوذ والسلطان على الفرد ، من والدين ومربين ومعلمين وغيرهم ، قد تختلف ، بل وقد تتعارض وتتضارب ، وبذلك لا يحدث تكامل في مثل الإنسان أو في ذاته المثلى .

ولقد درس علماء النفس ، الاختلافات بين الوالدين في توجيههما للطفل وأثرها في تكوين ذاته العليا ، ومن ثم في سلوكه في الحياة ، وفي أخلاقه بل وفي صحته النفسية . فقد يكون الأب صارماً مع الطفل بينما تكون الأم لينّة متساهلة . وبذلك يمتص الطفل منهما مثلين أو اتجاهين خلفيين ، يسير بمقتضاهما في حياته ، فيكون صارماً في بعض الأحيان ، ولينا متساهلاً أحياناً

أخرى . والحياة مليئة بهذا الصنف من الناس . نجد الشخص منهم صارما بل قاسيا مع أولاده ومرؤوسيه مثلا ، بينما يكون ليننا متساهلا ، بل وضعيفا الضعف كله مع زوجه أو رئيس له .

ونجد مثل هذا الشخص متبدل الآراء ، متقلب الأحكام في كثير من أمور الحياة وقضاياها . فهو يعضد رأيا ، أو يصدر حكما على أمر ، وإذا به بعد ذلك يفنده أو ينقضه . ذلك لأن ذاته المثلثي ، أو ذاته العليا تتكون من قوى ليست متماسكة ولا متساندة ، بل متعارضة متضاربة .

وسبب آخر لعدم تكامل الذات المثلثي أو الذات العليا في الإنسان ، هو اتجاه الوالدين ، وخصوصا الأم في أول الأمر ، نحو الطفل . فهي مصدر حبه ، ومنبع رعايته وحمايته . ثم إنها في الوقت نفسه ، مناعة له ، تقف في سبيل تحقيق الكثير من رغباته ، وتثير فيه بسبب ذلك مشاعر العدوان ، بل البغضاء . وإذا بالذات تتمثل الأم على هذا الشكل : تتمثلها قوة محبة راعية حامية ، وقوة بغیضة مناعة معادية . . وتجذ الذات نفسها بعد ذلك بحكومة بقوتين متعارضتين في الضمير ، فلا تستطيع أن تهوى نفسها لهما معا . ويظهر أثر ذلك في السلوك المتناقض للفرد تجاه شخص واحد . . فهو يحبه ويكرهه معا ، وهو يقبل عليه حينما ، ثم يضيق به ، وينفر منه حينما آخر ، خصوصا إذا بدأ ينتقده ويسدى له بعض النصائح أن يقلع عن تصرف معيب ، أو اتجاه ضار به في الحياة ، أو إن حال ذلك الشخص دون استمتاعه بما يريد ، أو كان سببا في الحد من حريته . . ويفسر لنا هذا في بعض الأحيان ، تبرم الإنسان بأعز من يعزه ، وأحب الناس إليه . . تبرمه بوالديه مثلا ، أو زوجه ، أو أولاده ، أو أصدق أصدقائه . وقد يصل هذا التبرم والضيق ، إلى قلق نفسى فظيع ، ينهش في أعصابه ، أو إلى شذوذ في السلوك تجاه أحبائه ، فهو يقبل عليهم ثم يدبر ، ويخلص لهم ثم يغدر ، ويبقى مترددا بين هذين النقيضين في السلوك .

وقد تلجأ الذات إرضاء لها تين القوتين المتعارضتين ، المتمثلتين المتقمصتين في الضمير ، إلى إسقاطه ^(١) على أشياء خارجية : على أشخاص عطوفين محبين يقابلون مظهر الحب فيه ، وعلى أشخاص طالحين قاسين يمثلون مابه من مظهر العداة والبغضاء . وأوضح مثل لذلك ، القصص الخرافية ، التي نجد الأبطال يستمتعون بها الاستمتاع كله ، ويطلبون المزيد منها . . تلك التي تضم أبطالا عطوفين طيبين ، وأبطالا أشراراً قاسين . . فالأم الحنون ، أو الملاك الخيرة العظوفة ، تمثل صورة الأم الحقيقية المحبة الراعية في الضمير ؛ والساحرة الخبيثة ، أو امرأة الأب القاسية ، تمثل صورة الأم نفسها المناعسة المعادية . والرجل الصالح ، أو الملك الكريم ، يمثل صورة الأب الشفوق الحنون في الذات العليا . والغول أو العفريت الشرير يمثل صورة الأب نفسه القاسي ، الشديد في فظاظته وغلظته .

وقد يسقط الطفل ضميره على دمية من الدمى ، تمثل أمه أو أباه بمظهره المتناقضين المتمثلين . فهو يقبلها ، ويتحجب إليها ويخدمها ، ثم يشتمها ويمسك في وجهها ويتنكر لها ويحطمها .

وسبب ثالث لعدم تكامل الذات المثلى ، ومن ثم الضمير : هو أن أكثر المظاهر الصارمة الزاجرة للذات العليا متمثلة في الحقيقة من الذوات العليا

(١) الإسقاط عملية لاشعورية بها ينسب المرء بعض صفاته لغيره . فمثلا قد نجد شخصا كذوباً يتهم غيره باطلا بالكذب ، ويشعر نتيجة لذلك بشيء من الراحة ، إذ كأنه بإسقاطه هذا العيب على غيره قد محاه من نفسه . وفي الحالة التي نحن بصددنا قد يسقط الإنسان القوتين المتعارضتين المتمثلتين في ذاته العليا اللتين لم يستطع لهما توفيقا وهما مظهر أمه أو أبيه من حيث أنه قوة حمية راعية من جهة ، وقوة بغضة مناعية من جهة أخرى ، يسقطهما على شخص مثل صديق أو زوج ، أو شخصين مثل بطلين في قصة . وكأنه يرى فيه أو فيهما أمه أو أباه بمظهره المتعارضين ، فيحب شخصا ويكره الشخص نفسه ؛ أو يحب بطلا عطوفا في قصة ويكره بطلا آخر قاسيا في القصة نفسها . وكأن الصراع الداخلي الذي يقاسى المرء منه بين القوتين المتعارضتين يخف وطأته بهذا الإسقاط .

للوالدين ، لامن الوالدين أنفسهم . فالوالدان في معاملتهما للطفل ، كثيرا ما يريدانه أن يتصرف ويسلك سلوكه ، كما يحبانه أن يتصرف ويسلك ، لا كما هما يفعلان . أى أنهما يريدانه على أن يسير تبعاً لمثلهما العليا ، لا تبعاً لماهما عليه في الواقع . وكأنهما بذلك يأمران الطفل أن يفعل كما يقولان ، لا كما يفعلان . وبسبب هذا تنتقل التقاليد والعادات الاجتماعية في الأسرة والمجتمع العام من جيل إلى جيل كما سبق أن ذكرنا من قبل . . إذ عند ما يصبح الأطفال آباءً وأمهات ، فإنهم يفعلون مع أبنائهم مثل ما فعل والدوهم معهم .

وعلاوة على تمثل الطفل وتقمصه للمثل العليا للوالدين ، فإنه يتمثل في ضميره أيضاً والديه الحقيقيين الواقعيين .

وإذا كان الفرق شاسعاً بين مثل الوالدين النظرية التي يمتصها الطفل عنهما ، ومثلهما العملية الموجهة لسلوكهما وأفعالهما التي يتمثلها أيضاً في ذاته العليا ، ينشأ الطفل مرئياً منافقاً ، يقول ما لا يعنى ، ويعنى غير ما يقول ؛ ويمارس ما لا يؤمن به ، ويؤمن بما لا يمارسه ... بل إنه قد يعمل على العكس تماماً من تعاليم والديه ومثلهما العليا التي أشربها في ضميره ، إذا كانت تلك التعاليم والمثل ، طيبة صالحة رفيعة . لأن الذات السفلى تجد في هذا البون بين القوتين المتمثلتين في الضمير عن الوالدين ، فرصة ذهبية لأن تملى القوة الأقرب شهبها ، وتتحالف معها سرا ضد قوة التعاليم والمثل ، فتدفع الذات لتحقيق مآربها ، والانغماس في شهواتها . .

وثمة سبب آخر لعدم تكامل الضمير هو تمثل الإنسان في مجتمعه مثلاً تناقض أو تتعارض مع ما تمثله من قبل عن والديه وبيئته المنزلية الأولى . وقد أشرنا إلى هذا من قبل^(١)

(١) أنظر صفحة ٤٠ من هذا الكتاب .

وثمة سبب آخر لعدم تكامل الذات المثلى والضمير وإثارة صراع فيه ، هو إصرار الوالدين على أن يقلدهما الطفل في بعض التصرفات ، ولا يقلدهما في بعض التصرفات الأخرى . فهما يتطلبان منه أن يقلدهما في نظافتهما وعطفهما على إخوته ، وضبطهما لمشاعره ، ولسكن لا يسمحان له أن يسهر مثل ما يسهران ، ويدخن كما يدخنان ، وأن يصحبهما في جميع زيارتهما ، وأن ينام معهما إلى غير ذلك . وبمعنى آخر ، فإنه يطالب بأن يتمثل ما هو ثقيل بغيض لقلبه من حياة الكبار ، ويتمثل في الوقت نفسه كل ما هو لذيق سار على أنه محرم ومحذور . ويبقى هذا جزءاً ثابتاً من شخصيته ، وقوة لا شعورية في ضميره تزجره على الدوام ، وتمنعه من أن يقوم في حياة الرشد بما يجب أن يقوم به بناءً على ما يتمثله من مجتمعه . وكأن هناك صراعاً عنيفاً يحدث بين طبقات الضمير اللاشعورية الطفيلية العميقة التي تحوى تلك المحرمات والمحظورات ، وبين المثل شبه الشعورية التي يتمثلها في الطبقات السطحية من الضمير نتيجة لاتصاله بالنظم التي تسود مجتمعه . ومعنى ذلك أن يشعر الإنسان في بعض الأحيان أنه مسموح له أن يقوم بعمل معين ، بل قد يشعر أن من واجبه أن يقوم به ، ولسكن قوة خفية ، ودافعا لا شعوريا ، وهاتفا باطنيا ، يدوى من أعماق ضميره ، بأن هذا الواجب محرم عليه . والمثل في ذلك ما سبق أن ذكرنا في الباب الأول من أن الضمير قد يمنع الإنسان من ممارسة مهنته التي أعد نفسه لها ، فيجعله يتبرم بها ، أو يهرب منها .

والمثل في ذلك أيضا ، مثل الرجل الذي كان شديد الحب لأمه حتى إذا مرضت مرض الموت ، أتت صديقة لها ترعاها وتغني بمنزله . فلما ماتت الأم ، أراد الرجل أن يظهر للصديقة عرفانه بحميلها ، فخطبها ، وتحدد موعد زواجهما . وإذا بالرجل يمرض مرضا فجائيا يوم الزواج الموعود فيؤجله إلى يوم آخر . فلما حان ذلك

اليوم ، انتحر . وتفسير ذلك أن الرجل كان يرى بشكل لا شعورى شها بين هذه السيدة وأمه ، وأن حبه لأمه بالعنصر الجنسي المكبوت طبعاً ، قد تحول نحو هذه السيدة ، فكأنه بزواجه بها يتزوج أمه المحرمة عليه . ولم تنطق ذاته العليا ذلك ، فأمرضته في أول مرة حتى لا يتم الزواج ، ثم أرغمته على أن ينتحر في المرة الثانية حتى لا يرتكب الخطيئة بزواجه من تلك السيدة .

من كل هذا نرى ، أن تكوين الضمير المتكامل في الإنسان مهمة غير يسيرة مطلقاً ، بل وفي بعض الأحيان غير ممكنة ، نتيجة للظروف الاجتماعية التي تحيط بالإنسان منذ طفولته ، والتي لا قبل له على تغييرها أو التأثير فيها ، لقلة حيلته وضعف قواه إزاءها . فكم من طفل يضطر لأن يعاشر أبا سكيراً آثماً منحل الأخلاق مفكك المثل . . . وكم من طفل يضطر لأن يعاشر زوجة أب أو زوج أم كاره له ، قاس عليه ، يعامله كالمولود كان حملاً ثقيلاً بغيضاً . . . وكم من طفل يعاشر زوجين منقسمين ، يعيشان في شقاق مستمر ، وخلاف دائم . . . وكم من طفل يمتص من والديه مثلاً طيبة صالحة ، فإذا بالظروف تدفعه لأن يعيش وسط مجتمع مناقض في مثله لما تمثل من والديه ، يعج بأنواع الرزايا والردائل والإجرام ، فتزلف إليه هذه المثل الاجتماعية ويتمثلها ضميره في طبقاته السطحية ، ثم تنخر فيه شيئاً فشيئاً حتى تواجهه مثله العميقة الأولى التي تقمصها من والديه . وإذا بصراع عنيف داخلي يحدث في الضمير يرهق الذات ويجعلها في حيرة مرة ، ويستنفد جزءاً كبيراً من طاقتها ونشاطها العقلي ، فيخر المرء متعباً مريض النفس والعقل والجسم . وقد تغلب المثل الفاسدة على الصالحة ، في السيطرة على الذات ، تعاونها في ذلك الذات السفلى التي تتماق الذات عن طريق ذلك التركيب الدخيل الجديد الفاسد في الضمير - فتندمج الذات في المجتمع وتنغمس في شروعه ، ويبرر الإنسان ذلك بأنه يريد أن

يعيش ، أو بأن على عاتقه مسئوليات أسرة ، وتربية أطفال ، وغير ذلك .
ومن أجل هذا نجد في تلك المجتمعات المضطربة بلجج الفساد ، المضطربة
بنيران الشرور ، أفراداً ينقلبون من حياة طهر وصلاح ، إلى حياة شر وطلاح .
وليت الأمر ينتهي إلى ذلك . بل إن هؤلاء يصبحون مثلاً لأطفالهم وذويهم ،
فيمتصون منهم تلك النزعات الجديدة ، وتنطوي عليها ضمائرهم التي على هداها
يسيرون في قافلة الحياة .

وهكذا يتفاقم الشر ، ويدب الفساد سريعاً في أوصال المجتمع . وتحيا
الناس حياة بهيمية ، حياة الوحوش في الأدغال ، حياة غدر وخيانة وفوضى
أخلاقية ، وابتلاع القوى للضعيف . وبذلك يتفكك المجتمع كما تفككت
ضمائر الناس وانحلت ، فطغت عليها ذواتهم السفلى أو ميولهم البهيمية الهمجية .

إن تكوين الضمير كما سبق أن ذكرنا ، يبدأ منذ الطفولة الأولى ، وينبع
من الوالدين . فإذا أردناه أن يكون ضميراً منسجماً في قواه ، متكاملاً إلى حد
بعيد ، فيجب على الوالدين أن يعملوا على أن تكون المثل العليا التي يتمثلها
الطفل منهما متكاملة متضافرة ، وذلك أولاً — بانسجامهما معاً في حياتهما ولو
من أجل الطفل . وثانياً — باتفاقهما معاً في طرق تربيته ، فلا ينقض الواحد
منهما ما يبرمه الآخر مع الطفل ، ولا يكون صارماً والآخر قاسياً . وثالثاً —
بأن يسير كل منهما على طريقة واحدة ، ومبدأ واحد في تربيته للطفل ، فلا
يكون صارماً معه حيناً في أمر من الأمور ، ثم متساهلاً حيناً آخر في
الأمر نفسه . ورابعاً — أن ينظرا إليه طفلاً ينمو ، لا رجلاً اكتمل نموه ،
فيطبقان عليه معايير الراشدين ، ويرسمان له ذاتاً مثلى أرفع بكثير من قواه
وإمكاناته .

ويساعد على تكامل قوى الضمير ، الانسجام الذى يحدث فى تربيته فى منزله ومدرسته ، وهى المجتمع الثانى الذى يمتص الطفل منه قوى جديدة من قوى الضمير . فالأوامر والنواهي فى البيت والمدرسة يجب أن تسير دائماً فى اتجاه واحد . ولذلك ينادى المربون دائماً بوجوب إيجاد صلة وثيقة بين البيت والمدرسة ، وتبادل الرأى بينهما فى تنشئة الطفل .

كما يساعد على تكامله أيضاً ، أن تكون الآباء والأمهات والمربون ، مثلاً علياً واقعية للناشئين . فلا يأمر المربي الطفل أمراً ينقضه هو فى حياته الخاصة ، ولا ينهاه عن شئ يقوم هو به .

ويجب أن تكون النظم الاجتماعية السائدة ، نظماً صالحة ، وأن يكون المتنفذون على هذه النظم أشخاصاً صالحين ، ذوى مثل عليا من عدل وإيثار وأمانة وغير ذلك .

وأهم هذه الشروط كلها لتكامل الضمير ، الشرط الذى يتصل بالوالدين اللذين هما نواته وأساسه ، وهو لحسن الحظ أسهل الشروط فى إمكان تحقيقها . إذا ما تذكر الوالدان أنهما مسئولان عن الطفل ، وأن من حقه عليهما أن يتعهداه تعهداً صحيحاً ، ولو أدى الأمر لأن يؤدبا نفسيهما من جديد .

بهذه الشروط وبغيرها يعيش الإنسان فى أمن مع نفسه ، وفى أمن مع غيره ، وفى أمن مع النظم الاجتماعية ، لأنه يصبح ذا ضمير منسجم فى تركيبه ، آمن من أى صراعات خطيرة تنشب بين قواه .

الباب الثالث

عقاب الضمير والجريمة والعقاب

العقاب والحاجز إليه :

وجدنا من البايين السابقين أن النفس البشرية نفس معقدة ، وذلك للسبيين الآتين :

(أولاً) لأنها عدة أنفس مختلفة : نفس همجية وحشية لا تعرف خيراً أو شراً ، ولكنها تسوق الإنسان لتحقيق دوافعها الغريزية في حالاتها البدائية . وهي فطرية غير مكتسبة . ونفس واقعية تتكون في حياة الفرد نتيجة اتصالات النفس الأولى بحياة المحسّات التي يعيش الإنسان فيها ويتأثر بها . وتزخر هذه أيضاً برغبات مكبوتة تنافى المبادئ الاجتماعية والخلقية . ثم نفس عليا أو ضمير يتكون نتيجة تحكم أولى الأمر في الذات ، بدءاً بالوالدين منذ الطفولة الأولى ، واضطرار الذات لأن تتمثلهم حكماً آمرياً ، ومحبين عطوفين ، وناهين قاسين .

(ثانياً) لأنه ليس من السهل إيجاد تناسق وتوافق بين هذه الأنفس الثلاث . وذلك لأن كلا منها لها أهداف تغاير الأخرى ، وكلا منها من أجل ذلك تتربص بالفرص بالأخرى حتى تتغلب عليها ، وتنفرد دونها بالحكم في توجيه سلوك الإنسان . فالضمير يتحكم في النفس الدنيا أو الذات السفلى ، ويمنعها من أن تحقق أهدافها بالشكل الوحشي الذي جبلت عليه . ويتحكم

أيضا في الذات أو النفس الواقعية ، فيمنعها من أن تحقق الرغبات التي تتناقض مع النظم الاجتماعية والتقاليد والمثل الخلقية ، التي تكون الجزء الأكبر من الضمير . ثم إنه يقف في الوقت نفسه حارسا فظا غليظ القلب ، لما في تكوينه من عناصر الشراسة والقسوة التي تكلمنا عنها من قبل .

وتقف الذات بين المطرقة والسندان ، تهزها الذات السفلى من الحضيض ويمسك بأذنها الضمير من أعلا . فإن خالفته شديدا بقوة وعنف ، وكشر عن أنيابه لها ، وعاقبها عقابا مبرحا ، قد تقع بسببه فريسة لأمراض مختلفة ، ربما تنضح على جسم الإنسان .

ولأهمية العقاب رأيت أن أتناوله في هذا الباب مبينا أثره في سلوك المرء سواء كان صادرا عن الضمير ، أو عن قوى خارج الضمير .

ليس من شك في أن إحدى العواقب الهامة لتكوين الضمير — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — هو بزوغ الشعور بالذنب إذا ما قام الإنسان بما ينافي الضمير ، أو فكر مجرد تفكير في ذلك . وهذا الشعور خاص بالإنسان في الغالب ، ولو أننا قد نجد به بشكل أولى بدائي في بعض الحيوانات الراقية الأليفة مثل الكلب . ففي بعض الأحيان عند ما يقوم هذا الحيوان بعمل غير مسموح له ، نتمين عليه شيئا من مظاهر الشعور بالخطيئة من غير أن يوجه إليه لوم ، أو يفرض عليه عقاب .

والذنب قائم على الخوف ، ولكنه يختلف عنه في أنه يستلزم للشعور به ، تكون عواطف خلقية تهدينا إلى ما ينبغي لنا أن نفعله ، وما لا ينبغي لنا أن نقر به . أما الخوف الذي يثيره الذنب ثم يندمج فيه بعد ذلك ، ويكون معه وحدة متكاملة . فهو خوف من العواقب المؤلمة التي قد نقاسيها نتيجة عدم

السير في ضوء تلك العواطف الخلقية . وتختلف هذه العواقب في النوع ، من تعذيب جسمي ، أو لوم ، أو سحب للحب ، إلى شعور صرف بالذنب والحقارة وبليلة النفس ، وقلقلة البال . وتختلف في الدرجة من صفة الوالد أو لوم بسيط يوجهه ، إلى حكم بالإعدام يوقعه القانون ؛ ومن وخزة ضمير إلى شعور دائم بالخزي والعار ، بل إلى الانتحار . والذنب ، كأية حالة انفعالية مثل الغضب أو الاشتزاز ، هو حالة نفسية من التوتر . ولكن الذنب بالرغم من ذلك ، يختلف عن الانفعالات البسيطة مثل الخوف والغضب والاشتزاز وغيرها ، في أنه لا يتصل ، كما يتصل أى انفعال من تلك الانفعالات ، بنوع خاص معين من السلوك ، محدود في الغالب تحديداً طبيعياً حيوياً . فالخوف يتصل بالطبيعة بالهرب ، والغضب بالاعتداء ، والاشتزاز بالنفور . وحالة التوتر التي تنشأ عن إثارة كل من هذه الانفعالات الثلاثة ، تعالج بالقيام بالسلوك الذي يتصل بها : بالهرب في حالة الخوف ، أو العدوان في حالة الغضب ، أو النفور في حالة الاشتزاز . ولكن الشعور بالذنب انفعال خلقى اجتماعي . ولذلك يجب أن يعالج التوتر الناشئ عن إثارته بشكل خلقى اجتماعي أيضاً . حقيقة إن الذنب يتضمن ارتكاب خطيئة أو على الأقل إغراءً بارتكابها . . . والخطيئة تضر بالغير مادياً أو عقلياً أو اجتماعياً . . . والإنسان ، مثل الحيوان ، يغضب إذا أصابه أحد بضرر ، ويسلك تجاهه سلوك العدوان . فإذا كان هذا العدوان غير مباشر ، وقائماً على أساس من التفكير ، سمي انتقاماً . . . وعند ما يصطبغ العدوان بصبغة أخلاقية ، أى يوجه ضد الشخص الذي ارتكب الخطيئة سمي عقاباً . وبذلك يتضح لنا أن العقاب الخارجى ، ينشأ عن الدافع الطبيعى للعدوان .

والأفعال والتصرفات التي تثير الذنب ، لسكونها أفعالاً وتصرفات قد

تسبب للغير ، توقيـع القائم بها تحت سوط العقاب . وباقتـران هـذين ، الذنب والعقاب ، يتعلم المرء أن يتوقع العقاب دائما عند ما يشعر بالذنب .

وتوقيع العقوبة على المذنب ، يعمل على أن يحرر أولئك الذين أصابهم بالضرر ، من مشاعر الحنق والغضب التي أثارها فيهم ، تسببه في الإضرار بهم . وبذلك يهدأ غضبهم بعد توقيع العقوبة عليه . ويمكن أن ينطبق هذا على الوالدين عند ما يذنب طفلهم . ويمتص الطفل اتجاههم العدواني المعاقب نحوه ، ويتمثله في نفسه عند ما يتكون الضمير عنده .

ليس غريبا إذن أن يتعلم المرء في الحياة ، ليس فقط أن يتوقع العقوبة عندما يذنب ، ولكن أيضا أن يتحرر من ذنبه ، ويستشعر الراحة عندما يعاقب ، نتيجة لتمثله صورة والديه اللذين يضرانه عندما يذنب بأن يعمل مالا يرضيهما مثلا . وكما أن الوالدين كانا يستشعران الرضا في هدوء سورة غضبهما عند توقيعهما العقوبة على طفلهما ، فكذلك ترضى الذات العليا أو الضمير ، وهو وريث الوالدين عندما يوقع العقاب على الذات . ولكن الضمير قد يكون أقسى بكثير من الوالدين نتيجة وجود المشاعر العدوانية المتجهة ضد ذات الطفل فيه ، كما بينا في العامل الثالث لتكوين الضمير الذي تكلمت عنه من قبل (١) . ولهذا السبب قد يوقع الضمير على الذات عقوبة قاسية لا تتناسب مع الذنب الذي اقترفته .

فالذنب إذن يثير حالة توتر بين الذات والذات العليا أو الضمير ، يماثل التوتر الذي يحدث بين الطفل والوالدين ، إن فعل مالا يرضيان عنه . والعقوبة هي الوسيلة لإزالة هذا التوتر ، واستشعار الراحة ثانية . وبذلك

(١) أنظر صفحة ٢٧ من هذا الكتاب .

تلعب مقاساة المرء العقوبة إزاء الذنب ، الدور نفسه الذى يقوم به الهرب فى حالة الخوف ، والعدوان عند إثارة الغضب .

ليس أمراً مثيراً للدهش إذن ، أن يقول التحليل النفسى ، على ضوء البحوث التى قام بها فى الضمير ، إن هناك صلة نفسية وثيقة بين الذنب والعقاب . وإن المذنب يشعر بحاجة إلى العقاب ، حتى يزول التوتر النفسى الذى يسببه الذنب الذى يقترفه ، إذا سدت هذه الحاجة . وفى ضوء هذه الصلة بين الذنب والعقاب ، نستطيع أن ندرس أصل النظام الاجتماعى للعقوبة ، وأساس فكرة العدالة المتصلة بها ، التى يستهدف المجتمع عند تطبيقها على الأفراد ، إيجاد اتزان وتعادل بين الجريمة والعقاب ، وأيضاً بين الفضيلة والثواب .

ويظهر لنا من العجالة السابقة أن العقاب والعدالة ليسا شيئين جديدين ابتكرهما رجال القضاء والتربية ، لأن أصولهما موجودة فى التركيب العقلى للإنسان منذ الطفولة الأولى . فبمجرد أن يبرز الضمير نتيجة لتحكم الوالدين وسيطرتهما على الطفل ، تظهر لديه الحاجة للعقاب ، التى تدفعه ذنوبه لتحقيقها بصورة تناسب مع قدر هذه الذنوب ، فيتضمن هذا التعادل بينهما فكرة العدالة .

طرق التمييز عن الحاجة للعقاب :

قد يكون تحقيق الحاجة للعقاب بطرق مختلفة ، منها ما يأتى :
(١) مقاساة العقاب نفسه . وتبدو هذه المقاساة أهم الطرق ، وأكثرها بدائية لتخفيف الذنب على الإنسان . بل قد تعمل على إزالته ومحوه فيشعر الإنسان براحة نفسية كبرى . وقد يعمل المذنب بنفسه — دون أن يشعر — على أن يقاسى العقاب على يدي من يحق لهم العقاب ، أو عن طريقه هو . فكم

من مجرم يخطيء في ارتكاب جريمته ، فيترك أثرا يدل عليه ، ويرشد المحققين إليه ، مثل بطاقته أو عصاه أو منظاره ، إلى غير ذلك . وكم من مذنّب يعمل على أن يقاسى من ذنبه ، بأن يزل في الطريق فيصاب برضوض ، أو أن يصطدم بشجرة أو عمود مقام . وكم من طفل يدعو على أمه بالمرض أو الموت إن هي قست عليه ، أو حرمته متعة لذيدة ، فإذا به يعض لسانه ، أو يلطم فيه . وسنرجع إلى هذا مرة أخرى في شيء من الإسهاب .

(٢) وثمة طريقة أخرى لسد الحاجة للعقاب والتحرر من الذنب ، وهي التعويض .

إن توقيع العقوبة على المذنّب قد يخلصه من ذنبه إلى حد ما ، وقد يسكن غضب الشخص الذي اقترف ذنبه ضده . ولكن هذا التسكين ، إنما هو تسكين نفسى فقط . أما الأضرار المادية التي ربما تتسبب عن المذنّب ، فتظل باقية . ولذلك تثار الرغبة في إصلاح هذه الأضرار ، ولا تتحقق بعقاب المذنّب ومقاساته فقط . فمثلا إذا سرق لص ملابسك ، فقد تشعر بالراحة إذا ما أوسعته ضربا ، أو سلمته للشرطة . ولكن هذا العقاب لا يرد لك ملابسك . وقد يكون من الأفضل أن تطالبه برد ماسرقة منك . ولذلك نجد أن التعويض أفضل من العقاب في تخفيف غضب المعتدى عليه ، وفي تخليص المذنّب من ذنبه لعدة أسباب أهمها ما يأتى : أولا — لأنه يصلح شرا وقع . وثانيا — لأنه يتضمن تكييفاً للسلوك تجاه الشر الذى ارتكب تكييفاً نوعياً وكماً . وثالثا — لأنه يتضمن تنازلاً عن دافع الانتقام الهمجى تجاه المذنّب ، اللهم إلا إذا ألح في طلب العقوبة والتعويض معا ، كما يحدث في بعض الأحيان ، حيث تكون العقوبة علاجا لنتائج الجريمة من الناحية النفسية ، ويكون التعويض علاجا لها من الناحية المادية .

وقد أدت بحوث بياجيه Piaget عالم النفس السويسرى المعروف بدراساته
لنفسية الأطفال وعقليتهم ، إلى أن التعويض ، طريقة لمعالجة الذنب ، يأتى
متأخراً فى حياة الطفل ، عن العقوبة المجردة . ويمكن الرجوع فى ذلك إلى
كتابه « النمو الخلقى للطفل » ، Moral Development of the Child

وأثبتت بحوث علماء التحليل النفسى على أن التعويض أو الإصلاح ،
تنبت بذوره بشكل بدائى فى الطفولة المبكرة . ولكن بالنسبة لما لعناصر
العدوان التى تشتملها الذات العليا فى ذلك العهد من قوة وغلبة ، يتضاءل
التعويض ودوافع الإصلاح إزاءها . وتبدو العقوبة كأنها الطريقة الوحيدة التى
بها يعالج الذنب . ولذلك يرى علماء التحليل النفسى وجوب تشجيع الإصلاح
والتعويض مع صغار الأطفال ، وتنمية روح العدالة فيهم ، وعدم اللجوء
فقط إلى العقاب المجرد . فإذا عبت الطفل الصغير فى بعض الأدوات بال غرفة ،
طالبناه بأن يرتبها وينظمها كما كانت ، وإذا خطف شيئاً من متاع أخيه ،
طالبناه بأن يرده إليه ثانية ، وهكذا .

إن الإصلاح أو التعويض فى معاملة الذنوب ، قد يكون قاسياً ومؤلماً
للذنب ، وبذلك يتضمن العقوبة أيضاً . فالتعب الذى يصيب الطفل من
جرائم ترتيبه الأدوات التى عبت بها ، هو أيضاً بمثابة عقاب له . ورده متاع
أخيه ، فيه حرمان له مما صار فى يده ، واعتبره ملكاً له .

ويبدو الألم فى التعويض على أشده ، فى ألوان التضحيات والقرايين التى
تقدم تكفيراً للذنوب ، سواء أكانت تضحيات فردية أم جمعية ، مثل
تضحية الفرد بطعامه فى الصوم ، إذا ما مارسه تكفيراً عن إثم ، أو إطعامه
بعض الفقراء والمساكين من قوته وماله ، إذا ما ارتكب خطيئة الإفطار .
ومثل تضحية الجماعة بفرد منهم أو ببضعة أفراد كما يحدث فى المجتمعات الهمجية ،

وكما كان يحدث من قبل في بعض المدن القديمة . والمثل على ذلك التضحية بفتاة كان يقذف بها في النيل كل سنة ، استرضاء له ، وتكفيراً عما جناه القوم من آثام .

(٣) وثمة طريقة أخرى لمعالجة الذنب وهي الاعتراف . والاعتراف على أشكال ، منها أن يعترف الإنسان بنفسه لنفسه بما ارتكب من ذنوب وآثام ؛ أو أن يعترف للغير بها مثل أب أو أم أو صديق أو قسيس ؛ أو أن يكون الاعتراف لمن أذنب في حقهم ، أو أصابهم بضرر ، كاعتراف المجرم بجرمه للسلطات التنفيذية أو التشريعية .

وقد يكون الاعتراف غير مقصود . والمثل في ذلك مثل الزوج الخائن الذي ينادى زوجته باسم عشيقته عن غير قصد ، ومثل المجرم الذي يكشف بنفسه عن جرمه ، أو يترك دون أن يقصد ، آثاراً ودلائل تدل عليه ، لم يكن من المنتظر أن يتركها غي أو مأفون ؛ مثل القاتل الذي كتب قصة عن جريمة قتل ، وذكر فيها جريمته ، وسرد وقائع وتفصيل لم تكن معروفة لدى الشرطة ، ولم يكن من السهل عليهم أن يصلوا إليها . وبذلك يمكن السلطات من إثبات الجريمة عليه . ومثل المجرم الذي يرجع إلى المكان الذي ارتكب جريمته فيه ، فيوجه إليه الأنظار ، ويمكن المسؤولين من أن يتبعوه حتى يكشفوا عن إجرامه . والأمثلة الواقعية على ذلك كثيرة . إن الكشف عن الجرائم الكبرى مثل السرقة والقتل التي لا يوجد لها شهود عيان ، والتي ربما تكون دبرت تدبيراً محكماً ، هذا الكشف كثيراً ما يحدث بمساعدة المجرم نفسه : بكلمة يقولها ، فترفع النقاب عنه ، أو سلوك يسلكه فينم عليه . وقد يعترف اعترافاً صريحاً بجريمته دون أن يكون هناك مبرر ظاهري لهذا الاعتراف ، الذي يعلم ولا شك أنه قد يودى بحياته . وهنا نواجه تناقضاً

غريبا في سلوك المجرم وتصرفاته ، عند ما يرتكب جريمة في تدبر وحذر وتفكير في كل شيء تقريبا ، ثم يقول كلمة أو يترك شيئا يجعل يد القانون تمتد إليه وتسلط عقابها عليه . إننا لا نعد هذا خطأ عن فشل في التفكير واختلالا في الحذر ، لأن طريقة ارتكاب جريمة تدل على تفكير وحذر شديد . وإنما نعتبر الخطأ من النوع النفسى الذى تدفعه إليه قوة خفية عنه لا يستطيع لها مقاومة ، ولا تجعله يدرك مطلقا هذا الخطأ الذى يقع فيه ، عند ما يقع فيه . هذه القوة الخفية اللاشعورية فيه التى تدفعه لأن يخون نفسه ، هى الحاجة إلى العقاب الناتجة عن التوتر النفسى اللاشعورى ، الذى يئن تحت ثقله فى داخل نفسه .

ولعل القارىء قد تتبع جرائم القتل الشنعاء التى اتهم بارتكابها من أطلقوا عليه اسم «وحش الاسكندرية» فى العام الماضى^(١) . لقد كان من الممكن أن تنصيب الشرطة له الشراك بعد أول جريمة ، أو بعد الجريمة الثانية ، لو أنهم فكروا تفكيراً سيكولوجيا فى المجرم . وبذلك كانوا ينقذون أرواحا خمسة ذهبت ضحية «الروتين» البوليسى . لقد ارتكبت الجريمة الأولى فى الليل ، وفى حديقة واسعة ذات أشجار يؤمها نوع خاص من الناس ليلا . وارتكبت الجريمة الثانية ليلا وفى مكان مشابه ، وكذلك الجرائم الأخرى . ثم إن المجرم بعد اعتدائه على ضحيته الثانية ، أتى بعد اكتشافها مباشرة إلى أحد الشرطة ، عند ما كانوا ينقلون الضحية إلى المستشفى ، وسأله «هل قال القتل شيئا؟»

(١) هو رجل فوق الأربعين له زوجة وأطفال ولكنه كان مصابا بشذوذ جنسى . إذ كان مغرما بالجنسية الذكورية ، وكان فى الغالب يلعب الدور السلبى فيها . وكان يصيد فرائسه من الشبان الشاذين أيضا فى الجنسية الذين يقاسون من الجنسية الذكورية المزدوجة أى أنهم يقومون بالدورين الإيجابى والسلبى منها . وكان هذا الرجل يقتل فريسته من الشبان بعد أن يرضى سويا غريزتهما الجنسية معا على شكل شاذ منحرف .

لقد كان هذا السؤال كافياً للنهوض بمراقبته حتى يمسك متلبساً بجريمته التالية قبل أن ينجح في إتمامها . ولكن الشرطة لم تستطع أن ترى شيئاً في تماثل الأمكنة التي ترتكب الجرائم فيها ، ولم تستطع أن تستشف شيئاً من هذا السؤال الغريب . ولم تستطع أن تصل إلى المجرم إلا بعد أن اعترف أحد الضحايا وقد شاء حظه أن تكون الرصاصة التي أطلقها المجرم عليه ، رصاصة غير قاتلة . بل إن المجرم كان يفعل أكثر من هذا ، إذ كان يتصل بضباط الشرطة ، ويتناقش معهم في هذه الجرائم التي يرتكبها ، ويبدى رأيه فيها . إن هذا الاهتمام الغريب من جانبه ، كان يجب أن يستلفت إليه أنظار البوليس من أول الأمر ، فيقوموا على الأقل بمراقبته .

أو خذوا مثلاً آخر عن جريمة قتل تاجر في متجره ، حدثت في الليل ، ولم تكتشف إلا في وقت متأخر في صباح اليوم التالي . وقبل الكشف عنها ، اشترى رجل جريدة من بائع صحف ، ومر عليه بعد ذلك بقليل قبل أن تكتشف الجريمة . فسأله البائع إن كان قد قرأها . قال « نعم » ، ولكن ليس فيها شيء عن القتل . فسأله البائع « جريمة قتل أخرى » ؟ قال « نعم في الشارع الفلاني » . وكان هذا الرجل هو القاتل (١) .

وقد يكون الاعتراف صريحاً ومقصوداً وبروية وتفكير . مثلاً عند ما يذهب المجرم من تلقاء نفسه فيعترف بجرمه لنوى الشأن ، بعد أن يزيد التوتر الداخلي الناشئ عن ذنبه ، وتتغلب حاجته اللاشعورية للعقاب على إرادته وعلى ذاته .

(٤) وطريقة أخرى لمعالجة الذنب ، هي السكبت .

وذلك بأن يكبت المذنب الشعور بذنبه ، كما تكبت الرغبات المنافية

(١) يلاحظ من يقرأ رواية « الجريمة والعقاب » لمؤلفها دوستوفسكي أن بطل الرواية بعد أن ارتكب جريمته صار يتردد على منزل المرأة التي قتلها . وحقاً يكاد المرء يقول خذوني .

للاخلاق والنظم السائدة . ويبدو كأن المذنب قد نسي ذنبه وأصبح لا يشعر به ، ولا تستثار عنده الحاجة للعقاب المتصلة بالمذنب بسبب ذلك . ويستمرى بعد هذا أن يرتكب الخطيئة أو الجرم مرة ومرات بقسوة ودون خجل . وهذا ظاهر في سلوك عدد من الناس ، خصوصاً أولئك الذين لم تتكون ضمائرهم تسكويناً قوياً متماسكاً ، ولم تكن مثلهم متسقة منسجمة متساندة . فالواحد من هؤلاء ، قد يرتكب خطيئة فيؤنبه ضميره ويشعر بالذنب ؛ ثم نتيجة لبعض التفكك الموجود في الذات العليا ، كما سبق أن بينا عند الكلام عن الصراعات التي تحدث في الذات المثلى ، يكبت هذا الشعور بالذنب . ويخطئ الإنسان بعد ذلك ويذنب ، بل ويجرم من غير شعور بذنب أو خجل أو عار .

ولذلك نجد أن السماح بارتكاب الخطيئة في بعض الناس ، شر لهم ولغيرهم ممن يلوذون بهم ، وللجتمع . لأن هؤلاء نتيجة لعدم تماسك قوى ضمائرهم ، ولتفكك مثلهم ، قد يستمرئون الخطيئة ، ولا يرون في اقترافها شراً أو عيباً ، فيجنون بذلك على أنفسهم وعلى غيرهم ومن هنا نجد من الخطأ ، بل من السفاهة أن يقول بعض الناس ، أو تنادى بعض الفلاسفة المغرضة بأن ليس من إيمان إلا بعد كفر ، وليس من توبة صادقة إلا بعد خطيئة كبيرة . إننا لا نجد سنداً نفسياً لهذه الأقوال الفارغة الشريرة ، ولا اعتبارها قاعدة عامة . بل إن علم النفس ليفندها ويخطئها ، تلك التي قال بمثلها من قبل شخص من أقدر الناس الذين عرفهم التاريخ ، وهو راسبوتين ، الذي كان يدعو للفساد بهذه الأقوال لأنه كان فاسداً منحلاً . وبعض الفاسدين الآثمين ، خوفاً من أن ينفر المجتمع منهم ، يحاولون أن يغروا الناس إلى الضلال ، حتى يصبحوا واحداً من كل ، أو على الأقل واحداً من بعض . لأن الإنسان مهما كان ، لا يطيق أن

يكون واحدا مفردا ، بعيدا عن الكل ، ناشزا من المجتمع . ويستندون في ذلك إلى أن الضلال يستهوى النفس السفلى الهمجية ، ويتصل بالغرائز في حالتها الوحشية ، ويشير الذات المتصلة بها ، وبالرغبات المسكوتة في الذات أو النفس الواقعية .

٥ - وثمة طريقة أخرى لمعالجة الذنب هي التبرير :

وهي أن يبرر المذنب ذنبه بشكل من الأشكال . فالتاجر الذي يقترف الإثم في تجارته ، فيغش الناس ويخدعهم ، ويكذب عليهم ، يبرر إثمه بأن المهنة تتطلب ذلك ، وأن التجارة شطارة ، وأنه بعمله هذا لا يكسر القانون . والرجل القاسي ، أبا كان أو حاكما ، يبرر قسوته بأنها وسيلة لصلاح أولاده أو مجتمعه . والسارق قد يبرر سرقة بجوعه أو جوع أطفاله وهكذا .

وهذا التبرير في معالجة الذنب أسوأ من طريقة السكبت التي سبق أن شرحتها الآن . لأن الإنسان يستند بها إلى دعامة في اقرار الذنب أو الخطيئة ، ويمنع نفسه الحق في أن يرتكبها . ولكن المجتمع الصالح ، يمكن أن يهدم بسرعة تلك الأسس الواهية ، التي يرتكن إليها المذنب ، أمام عينيه . فالتاجر إذا لقي إضرابا من الجمهور ، يبدأ يشعر بذنبه ، ويلغى مبرراته . والاب القاسي ، أو الحاكم المستبد ، يلقي إضرابا من ابنه أو شعبه ، وربما يجابه برد فعل على شكل ثورة . والسارق يفقد عطف الناس ، بل ربما يعاني عقابهم إياه ، فيرجع عن إجرامه ، ويفكر في طريقة اجتماعية لكسب عيشه .

ليس التبرير إلا ستارا يغطي ماتزخر الذات به من رغبات مريضة ، أو صفات رديئة ، تعمل الذات العليا على كبجها وعدم السماح لها بالتحقيق . إنه وسيلة الذات في استدراج عطف الذات العليا عليها ، باللجوء إلى بعض

مكوناتها القريبة الصلة بها ، مثل دافع التفوق دون كسر للقانون في حالة التاجر ،
وصلاح الطفل في حالة الأب القاسي ، والعطف عليه في حالة السارق الجوعان
الذي يبرر جرمه بجوعه وجوع أولاده . إنه وسيلة الذات للتغريب
بالذات العليا أو الضمير حتى تحقق رغباتها التي تشعر في داخل نفسها أنه
لا يوافق عليها . إنها دموع التماسيح تذر فيها الذات أمام الضمير القوى ، كما
تلين قلبه ، وتكسب عطفه . وقد يغتر الضمير بها إلى حين ، ثم إذا به يكشفها ؛
وتبدأ الذات تشعر بالذنب شعوراً فظيماً ، وإذا بها تتضاءل تحت ثقل الذنب
كما يتضاءل الطفل المخطئ أمام والديه . وإذا بالعقاب يأتي على صورة ندم
وحسرة واستغفار وتكفير عما جنته الذات .

(٦) وثمة طريقة أخرى لمعالجة الذنب . وهي أن يسقطه المذنب على
غيره من الناس ، وبذلك يتخلص منه ، بل ويبدأ ينتقد هذا الغير ويلومه على
ذنبه هو الذي أسقطه عليه وألصقه به . إن الحياة مليئة بهذا الصنف من
الناس الذين تثقل عليهم ذنوبهم فلا يستطيعون أن يتحملوا ثقلها ، فإذا بهم
يقذفون بها على غيرهم ، ثم يرون أنفسهم المذنبين فيهم ، ثم يلومونهم عليها وهم
بذلك يلومون أنفسهم حقاً بشكل لا شعوري . وكأنهم بهذه العملية كلها
يتخلصون من ذنوبهم .

وقد يصل الحال بالفرد من هؤلاء إلى اتهام الغير اتهامات باطلة ،
والشكوى منهم إلى أولى الأمر باعتدائهم عليه اعتداءً منكراً . وكم تمتلئ ملفات
القضاء بحالات من هذا النوع . وكم من أبرياء قاسوا ، وربما ذهبوا ضحية
إسقاط الغير ذنبهم أو جرمهم عليهم .

ويظهر الإسقاط بشكل متطرف في ذلك المرض العقلي المسمى « بارانيا »

Paranea إذ يكون لدى المريض إما يسمى بأوهام الاتهام Delusions of Persecutions فيشعر أن هناك أشخاصاً معينين يتآمرون ضده ، ويقفون في طريقه ، ويتجسسون عليه ، ويتكلمون ببذاءة عن أفعاله .

ويمكن تفسير ذلك بأن دوافع الذنب والعدوان الموجودة لدى المريض ، تسقط على أشخاص آخرين . وعلى هذا الشكل يستشعرهم ويراهم ، ويوجه إليهم مختلف الاتهامات ، التي هو في الحقيقة محل بواعثها ، ولكنه لم يستطع أن يرزح تحت عبئها ، فأسقطها على غيره ، وأصبحوا بذلك في نظره يضمرون بواعث العدوان هذه ضده ، ويزخرون بدوافعها التي يشعر أنهم يعملون على تحقيقها فيه . وليت الأمر ينتهي إلى ذلك ، بل إنه قد يطالب بمعاقتهم على ذلك . أو (وهو الغالب) قد ينتقم منهم ، بالعدوان عليهم بل ربما بمحاولة قتلهم .

فالإسقاط إذن لا يمنع من العقاب . بل إنه يحول الذنب والعقاب معاً إلى شخص آخر ، فيكون بذلك ضحية لذنوب غيره وجرائمهم . إنه طريقة سهلة ، ولكنها خطيرة ، يتخلص المذنب بها من شعوره بالذنب ، دون أن يتحمل في ذلك عقاباً . ولكن ليت الأمر يقف عند هذا الحد ، بل إنه يوقع غيره في مشكلات هو براء منها ، ويصوره للناس مذنباً ومجرماً يستحق الجزاء . وكأنه بذلك يرضى دوافعه العدوانية الأولية ، ويسترضى بذلك ضميره وما يضمنه من نزعات سادية قاسية .

وقد يحدث الإسقاط هذا من قبل جماعة من الناس على جماعة أخرى ، فيؤدي إلى حرب بينهما . وأقرب مثل تاريخي لذلك حرب إيطاليا ضد الحبشة ، وقد كانت الشرارة الأولى للحرب العالمية الثانية التي اكتوى العالم بنيرانها ، ولا يزال يعب من جحيمها ومرارتها . . فلقد أسقط الشعب

الإيطالي على الأحباش دوافع العدوان التي كانت تتأجج في صدره ضد الأحباش^(١) ، وصورهم للعالم معتمدين آثمين يستحقون العقاب . وبذلك نشبت الحرب بينهم . وكثير من حروب الاستعمار ، شبت نيرانها عن طريق عملية الإسقاط هذه . إذ يتهم المستعمر القوى ، الشعب أو الحكومة الممثلة للشعب الذي يريد أن يبتلعه ، بأنه يقوم باستعدادات هائلة للعدوان . وما هذا العدوان الذي يتهم المستعمر الشعب الضعيف به ، إلا العدوان الذي بدأت دوافعه قوية في نفسه ، ثم أسقطها على الضعيف . إنها قصة الذئب والحمل تماما . . الذئب ملء بروح الاعتداء الذي يسقطه على الحمل . . فهو يعكر صفو الماء الذي يستقي منه !! ثم هو من سلالة غنم اعتدوا على أجداده من قبل !!

ونجد الإسقاط أيضا في القبائل المتوحشة ، إذا هاج بينهم بركان ، أو جرفهم سيل مغرق ، أو انتشر بينهم وباء مهلك . إنهم يستشعرون من هذا غضب الآلهة عليهم لذنوب تزخر بها نفوسهم . فإذا بالقبيلة تسقط ذنوبها هذه على قبيلة أخرى ، فتصبح بذلك مجرمة تستحق العقاب والتقتيل . أو قد تسقطها على شخص أو بضعة أشخاص منها ، يصبحون في نظر القبيلة مجرمين ملوئين بأرواح شريرة ، فتعذبهم وتقدمهم قربانا للآلهة الساخطين .

ففي أونيتشا مثلا Onitsha على نهر النيجر في غرب أفريقيا ، جرت عادة القوم ، أن يقدموا كل سنة شخصين قربانا للآلهة حتى يرفع عنهم وزر آثامهم وخطاياهم . ويشتري القوم الشخصين بأموال تجي على صورة تبرعات . فكل فرد ارتكب في بحر السنة خطيئة مثل سرقة أو قتل أو زنا ، يدفع

(١) ساعد على ذلك إثارة موسولين في نفوس الطليان الرغبة في الانتقام من الأحباش الذين هزمهم في موقعة عدوى المشورة سنة ١٨٩٦

حوالى الدينارين . وبهذا المال الذى يجمع من الآثمين المجرمين المذنبين ، يشتررون شخصين من المرضى ، ويستأجران رجلا من جهة مجاورة لكي يقتلهما . ويحكى قسيس يدعى Taylor أنه شهد فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٥٨ قتل إحدى هاتين الضحيتين ، وكانت فتاة تبلغ من العمر عشرين سنة . جرها القوم وهى على قيد الحياة ، ووجهها على الأرض مسافة ميلين من منزل الملك حتى النهر ، بكل قسوة وفظاعة ، وكأنهم يحرقون فيها آثامهم وذنوبهم ، صائحين : الشر !! الشر !!

إن إسقاط الإنسان ذنوبه على الغير يحدث فى كل وقت ، وبين الأعداء والأصدقاء على السواء . إنه نتاج الخطيئة الأولى للإنسان الأول . لقد ارتكب آدم وحواء إثم المعصية البشرية الأولى معا^(١) ، ثم أسقط كل ذنبه على الآخر ، وعدّه مسئولا عن الكارثة التى حلت به . وربما كان الوازع اللاشعورى عند الرجل للإسقاط أقوى من تبرير المرأة ، لأنه خلق قبلها ، وكان ظهورها فى حياته كان بمثابة نذير شؤم له ، وسببا لطرده من النعيم . وقد دفعها إلى إسقاطها الذنب عليه ، أيضا بشكل لاشعورى ، أنه انغمس فى الخطيئة الأولى أكثر منها ، وكان شرها فى أكله التفاح المحرم ، لدرجة أن واحدة منها وقفت فى حلقة ، فأصبحت بذلك وصمة أبدية له ، ملتصقة به وبأحفاده من الرجال على ممر العصور . تلك هى تفاحة آدم . ويظهر امتداد الخطيئة الأولى للجنسين ، وإسقاط كل منهما خطيئته على الآخر فى المثل المشهور « قتش عن المرأة » ، كلها حدثت جريمة أو خطيئة . وشعور المرأة الدفين بأن الرجال ظالمين وخونة لا يؤتمنون .

(١) الدليل السماوى على هذا هو الآية الكريمة التى تقول « فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » .

وفي كثير من الأحيان نجد أن انتشار الوشايات والفضائح يقوم على أساس إسقاط مخترعها وناشرها ذنوبهم وآثامهم على الأبرياء ، وخصوصا إذا كانوا يشعرون بشيء من الكراهية لهؤلاء . إن أولئك المحملة نفوسهم بالذنوب ، لا يكتفون بالصاقها بالغير ، بل يتلذذون بما يوقع على هؤلاء من عقوبات ، أو ما يلاقونه من مقاساة . وكأن مشاعر العدوان التي تزخر بها ضمائرهم ، تجد الإرضاء والتحقيق في مثل تلك العقوبات والمقاساة .

ولذلك يجب أن يقف المرء في كثير من الحذر أمام الذين يكثر من اتهام الغير ، وينتقدون تصرفاتهم ، ويرمونهم بالنقص والخطايا .. لعل هؤلاء هم المذنبون الآثمون .. ولعل الغير أبرياء مطهرون مما ينعنون به .

بل قد يصل حد إسقاط الذنب الى أفطع من هذا . فيعاقب الشخص نفسه ، أو بالأحرى يعاقب الضمير الذات ، بعد إسقاط الذنب أو الجرم على الغير ، حتى يثبت فعلا أن الغير مجرمون . والمثل في ذلك مثل الشخص الذي يقصد أن يؤلم نفسه ، فيضرب بالحائط رأسه ، أو يحدث جرحا في جسمه ، ويتهم الغير بأنه هو الذي اعتدى عليه . نجد في هذه الحالة أولا أن الشعور بالذنب الذي تزخر به الذات ، أسقط على شخص آخر ، فأصبح هو المذنب الذي يستحق العقاب ، وثانيا - لكي يبرر المرء العقوبة التي يجب أن يقاسيها غيره يعاقب نفسه ، وثالثا - تعمل عقوبة النفس أو الذات هذه على تخليص الفرد من الشعور بالذنب كلية ، ولو إلى حين .

مركب بوليكراتيس The Polycrates Complex

نلخص كل ما سبق في أننا في أغلب الأحيان نشعر ، ولو شعورا ضئيلا بأننا لا نستطيع أن نصل في حياتنا إلى مستوى الذات العليا ، أي أن ذاتنا

قاصرة ناقصة بالنسبة للضمير ؛ وأنها لا تسلك في كل حين السلوك الذي يرضيه . ولذلك تشعر بالذنب ، ومن ثم بالحاجة للعقاب . ومعنى ذلك أن كلا منا مذنب تعس إلى حد ما . وأن كلا منا بسبب شعوره بالذنب أحيانا أو غالبا ، ضئيلا كان الذنب أو عظيما ، يبحث وراء الألم ، كما يبحث وراء اللذة والسرور . إذ عن طريق ألم العقاب ، يمكن أن يتخلص من عبء الذنب الذي يحدث تو ترا مضنيا في داخل نفسه . فإذا لم يخبر الإنسان في حياته ألما كافيا ، وكان كل شيء يسير سيرا مرضيا ، وكأن « حظا » كبيرا يلزمه في جميع خطواته وأعماله وتصرفاته ومشروعاته ، يبدأ الإنسان يستشعر شيئا من القلق وعدم الارتياح ، وذلك لأن حاجته للعقاب والألم لم تتحقق . وكأن لدى الإنسان في أعماق نفسه خوفا لا شعوريا من النجاح المطرد ؛ خوفا من التعاضم المستمر ؛ خوفا من السعادة المتواصلة . وكأن هذا كله نذير خفي بالشر ، وعلامة على حلول السقوط وحدوث الانهيار وتبدل السعادة شقاءا .

السنا نقول عند ما نضحك كثيرا « اللهم اجعله خيرا » ؟ أليس معنى هذا أن في أعماقنا خوفا لا شعوريا من أن السعادة المسترسلة قد يعقبها ألم ومقاساة ؟ ثم عند ما يقول الغربي ذو الحظ الحسن « أمسك الخشب » Touch wood لشخص يعدد له النعم التي تغدق عليه . . ألا يعنى هذا خوفا داخليا من أن تعقب هذه النعم نقمة ؟

إننا لنجد أثر هذا الخوف والقلق طوال حياة البشرية ، وفي كل عهود الإنسانية ، حتى في تلك العهود التي كان أسلوب حياة الناس فيها حرا طليقا بهيميا يكاد لا يشعر الفرد بذنب يذكر مثل عهد الإغريق القدماء . وقد سموا هذا الغلو في النجاح Hubris ، ومعناه الحرفي في اللغة الاغريقية ، شدة

أو عنف فاجر ، ناشئ من عتو في القوة والتباهى بها . واعتقدوا أن الغلو في النجاح والقوة يشير غضب الآلهة أو على الأخص إلهة الانتقام Nemesis ؛ إذ كأن الإنسان بنجاحه المتواصل وبمباهاته بقوته يتحدى الآلهة ، ويحاول أن يرتفع بنفسه إلى مصافهم ، ولذلك يوقعون عليه العقاب الشديد ليوقفوه عند حده ، ويلزموه دائرته الإنسانية الضعيفة بالنسبة لهم .

إن الشعور بالـ Hubris ومقاساة الإنسان منه ، امتداد أيضا لعدم الطفولة ، الذي فيه يستند الطفل إلى والديه ويتخذ مثله منهما ، ويتكون نواة ضميره عن طريقهما . فالطفل إن تحدى والديه وقواهما ، وعظمتها بالنسبة له ، وحاول أن يستقل عنهما في حياته ، ويقف عن الاستناد إليهما ، لشعوره بأنه قوى مثلهما ، قامى بسبب ذلك كثيراً . وعلى هذا النمط يعاقب الضمير الذات ، إن هي حاولت أن تتحدا ، وتستشعر في نفسها عظمة تتباهى بها ، وتحاول أن تتخلص منه بسببها . وكأن هذا التباهى ذنب عظيم لا بد له من عقاب أو كفارة . وعلى هذا النمط أيضا يخشى الإنسان أن يقاسى شراً إن هو تحدى الله ، الذي يشعر به أكبر من والديه ، وأكبر من أية قوة أخرى في الوجود . والذي يحس في قرارة نفسه أنه قادر على كل شيء ؛ وأنه السند الأكبر للإنسان في الحياة . فإن تعاظم الإنسان وتباهى بنجاح متواصل ، وتفخر بقوة فائقة ، فانه يبدأ يشعر بالقلق والخوف أن يلقي جزاء ذلك ، عقاباً على ذنبه ، الذي يستشعره من ذلك النجاح المتواصل ، إذ كأنه بذلك يتحدى الله ، ويأنس في نفسه القدرة على أن يسير في دروب الحياة مستقلاً عنه ، مستغنياً عن معونه ، بل ومنافساً له في عظمته .

ولذلك نجد في الأديان المختلفة ما يشعر الإنسان على الدوام بأنه ضعيف

أمام الله ، وأن مشيئته دون مشيئة هذا السند العظيم ^(١) .
ففي المسيحية مثلاً نجد في الإصحاح السادس من إنجيل متى « أبانا الذي
في السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتسكن مشيئتك كما في السماء
كذلك في الأرض . خبزنا كفافنا أعطنا اليوم » .

وفي الإسلام . . . نجد في القرآن آيات كثيرة بهذا المعنى مثل : « وما
تشاؤون إلا أن يشاء الله » . ومثل : « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً
إلا أن يشاء الله » .

ويتمثل التجبر في القوة عند الإنسان وما يلقاه من عقاب وألم بسبب
ذلك ، في المثل الذي ضربه القرآن في سورة الكهف : « واضرب لهم مثلاً
رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما
زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وفجرنا خلاهما نهراً . وكان
له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً . ودخل
جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة
ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً . قال له صاحبه وهو يحاوره
أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً . لكننا هو
الله ربى ولا أشرك بربى أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله
لا قوة إلا بالله ، إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً فعسى ربى أن يؤتين خيراً
من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيداً زلقاً ، أو يصبح

(١) يتبين لنا من هذا كيف أنه من السهل أن نثبت وجود الله أو ندلل بضرورة شعور
المرء بوجود خالق عظيم تدليلاً سيكولوجياً . ويمكن أن نقول إن أغلب الذين ينكرون الله
يشعرون في بعض الأحيان بخوف وقلق عام لا يدرون مصدره خصوصاً إذا حات بهم نكبة .
وكأن لديهم شعوراً دفيناً بوجود خالق عظيم ، وكأن النكبة عقاب لهم على تنكركم له وإنكارهم إياه .

ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا . وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا . (١)
لقد عذب اليهود المسيح ، لأنهم اعتقدوا ان لديه Hubris أو جبروتا يتحدى به الله كما نستبين ذلك من محاكمته الموصوفة في إنجيل متى الإصحاح السادس والعشرون :

« فأجاب رئيس الكهنة وقال أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله قال له يسوع أنت قلت وأبضا أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحاب السماء فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلا قد جدّف ، ما حاجتنا بعد إلى شهود . ها قد سمعتم تجديفه ماذا ترون . فأجابوا وقالوا إنه مستوجب الموت . »

بل لقد أكد القرآن في كثير من آياته على أن محمداً بشر وعبد ، وأن بينه وبين الخالق فرقا كبيرا وأن قواه محدودة جداً بالنسبة للخالق ، حتى لنجد لوما على درجات مختلفة موجهها إليه من الله .

مثلا « قل إنما أنا بشر مثلكم ، إنما أنت منذر ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ونجد اللوم في « عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدرىك لعله يزكى . »

(١) يعنى هذا المثل أن رجلا آتاه الله من نعم الدنيا الشيء الكثير كما هو مصور في وصف جنته . . ثم ظلم نفسه عندما ظن أن نعمته وعزه باق لن يبيد . إذ كأنه بذلك صور نفسه لها قادرا على الاحتفاظ بهذا النعيم . وكأنه بذلك ارتكب خطيئة الاشرار . ولقد نال عقابه على ذلك فخربت جنته وزال عزه ونعيمه . ولو أنه اعترف بضعفه أمام الله ولم يظلم نفسه فيراها قديرة عظيمة تكاد تصل إلى مستوى الله في قدرتها وعظمتها ، ولو أنه ذكر أن نعمته هذا هو ما شاء الله ، وأن عظمته وقوته إنما أتيا من عند الله لاستمر نعيمه ولم تهن قوته .

ثم « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه »
ثم أيضا « يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى
ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها » ثم « وإن كادوا ليفتنونك عن
الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لا تخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك
لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات
ثم لا تجد لك علينا نصيرا » .

ولقد سمي التحليل النفسى هذا الخوف المتأصل فى أعماق الإنسان من
غرور النجاح المتواصل ، أو غرور الجبروت الواسع ، والعقاب المتصل به
باسم مركب بوليكراتيس Polycrates Complex .

وبوليكراتيس اسم ملك ساموس فى بلاد الإغريق حكم من ٥٣٥ - ٥١٥
ق . م . ولاقى نجاحا متصلا فى غزواته ومشروعاته ، وتحالف مع ملك مصر
أحمس الثانى ضد قبيلز ملك الفرس . وقد أثار نجاحه المتواصل الخوف لديه
من أن تفتقم الآلهة منه ، ولتجنب هذا الانتقام Nemesisism ، حاول استرضاء
الآلهة بأن قدم خاتمه الثمين قربانا وقذف به فى البحر . وابتلع الخاتم سمكة
كبيرة غريبة صاها صياد ، وباعها للملك . وقدمت السمكة طعاما على مائدة
الملك فى حفل كان به فرعون مصر . فلما فتحها وجد لدهشته ودهشة الجميع
خاتمه بها . ففزع وفزع الحاضرون ، إذ اعتبروا ذلك دليلا على أن الآلهة لم
تقبل القربان ، وعلى أنهم مصممون على الانتقام منه . وقد هرول فرعون
مصر إلى بلاده ، وترك الملك المحكوم عليه إلى قضائه المحتوم المشتوم . وفعل
كانت نهاية الملك أن صلب على يد الفرس فى سنة ٥١٥ ق . م .

ومن مظاهر مركب بوليكراتيس ، أن يشمل الإنسان بالنجاح المتواصل

به ويغتر ويركب رأسه وقد يشعر في أعماق نفسه بشيء من التوتر ، وخوف
لا شعورى من مصيبة فادحة لاحقة ، ولكنه يتماهى في التفاخر والغرور ،
حتى يقع ، ويلقى جزاء غروره ، أو يوقع أهله وقومه في مصائب وفوضى
فظيعة .

ونجد التاريخ مليئاً بأمثال ذلك ، وأظهرهم يوليوس قيصر و نابليون وهتلر .
إن كل فرد منا لديه هذا المركب إلى حد ما . ويظهر بشكل واضح شاذ
في أربعة أصناف من الناس .

١ - أولئك الذين يرضون حاجتهم للعقاب على شكل مصيبة تحل بهم ،
أو معاملة قاسية يعاملون بها من محيطهم المادى أو الاجتماعى ، دون أن
يكنوا قد ارتكبوا ذنباً أو جرماً يستحق ذلك إلا تبعاً لمستوياتهم العقلية .
وكما أزيلت صعوبة من طريقهم ، أو رفعت مصيبة عنهم ، بحشوا عن بديل
لها . فإذا لم يصادفوا مصاعب ، ولم تحل بهم مصائب ، أصبحوا عصايين .

إن أغلب العصاب أو المرض النفسى يحدث نتيجة لصراع عقلى بين
شهوات الذات السفلى التى لا يمكن أن يوافق الضمير على أن تحققها الذات ،
وشهوات الذات نفسها ورغباتها المنافية للمثل الموجودة فى الضمير ، وبين
الضمير نفسه ، فيحدث العصاب كأنه عقاب من الضمير يوقع على الذات .
وقد يكون العصاب على أشكال مختلفة ، وقد يتولد عنه متاعب بل
وأعراض جسمية .

أما فى الحالة التى نحن بصدددها ، فإن العقاب بدلاً من أن يأتى من الضمير ،
يوقع من قبل العالم الخارجى على شكل صعوبات خارجية مثل فقر ، أو

اشتغال بمهنة متعبة غير مربحة ، أو مرض أو وقوع في زواج غير موفق . فإذا امتنعت هذه الصعوبات أو زالت ، لجأ الضمير نفسه إلى أن يقف موقف المعاقب بأن يزيد من قوة كبتة بقسوة لتلك الرغبات والشهوات المنافية له . فيؤدي ذلك إلى أمراض العصاب النفسى .

٢ - إذا كانت المصاعب الخارجية ترضى الحاجة للعقاب عند الفرد ، فليس من الغريب إذن أن نجد بعض أشخاص يخلقون بأنفسهم هذه المصاعب بشكل لا شعورى .

فهم يوقعون أنفسهم في متاعب ، كان من الممكن لهم أن يتجنبوها ، ولكن قوة لا شعورية تدفعهم إلى التورط فيها . فهم يقبلون على صفقة خاسرة ، مع أنهم يدركون بتفكيرهم أنها خاسرة ؛ ويعملون في مهن لا توافق ميولهم ، وهم يعلمون ذلك ؛ ويختارون لأنفسهم حياة زوجية لا تتفق مع مبادئهم وتقاليدهم ، وهم متيقنون من هذا ومن أنها ستجلب لهم الشقاء ؛ ويعرضون أنفسهم لأنواع من الطعام والشراب الذى يضر بصحتهم ، وهم على علم بذلك ، وهكذا .

وإذا سارت الأمور فى حياتهم سيرا موفقا ، فإنهم سرعان ما يخلقون متاعب ومشكلات فظيعة . ففي منازلهم ، يتسببون فى شجار ومنازعات بينهم وبين ذويهم لأتفه الأسباب . فإن لم يجدوا سببا حاضرا ، رجعوا إلى الماضى لينبشوا منه ويشيروا عن طريقه أسبابا لمنازعات فضت من قديم ، وطويت صفحاتها من قبل ، وهكذا .

وهؤلاء للأسف ، لا يقتصر أمر متاعبهم على أنفسهم ، بل إنهم يكونون سببا لشقاء الأبرياء من أزواج أو أصدقاء أو مرؤوسين .

٣ - وقد تحقق الحاجة للعقاب على الشكل المعروف بالهستيريا التحولية

أو القلق الهستيرى Anxiety Hysteria أو Conversion Hysteria . إذ يشعر الفرد بمخاوف وهموم عامة لا يدرك مصدرها ومنتهاتها . وتملؤه كآبة فظيعة لا يشفى منها إلا إذا أصيب بمرض جسمى . فالسكابة فى هذه الحالة عرض للحاجة إلى العقاب ، لا تزول إلا إذا نزل العقاب ، وتألم الإنسان . فإذا زال الألم رجعت السكابة والهموم والمخاوف العامة مرة أخرى ، وهكذا .

والمثل فى ذلك مثل رجل موهوب كان يقاسى كآبة فظيعة ، لا تزول إلا بعد عطلة السنوية ، ولأمد محدود . وذلك لأنه فى كل عطلة كان يجرى جراحة فى ناحية من نواحي جسمه ، فى ساقه أو أذنه أو أنفه ، أو بطنه . وكان لا يقبل إلا أن يخدر تخديراً موضعياً فقط ، ويرقب باهتمام إجراء الجراحة فيه (١) .

نجد هنا أن المرض العقلى يزول مؤقتاً بالجراحة أو بالألم الجسمى ، وكأن الجراحة عقاب يخلصه من شعور دفين بالذنب يسبب له تلك السكابة والمخاوف العامة ، فإذا ما زال الألم الجسمى ، عاودته السكابة ثانية .

وقد استغل تبادل المرض العقلى والجسمى فى العلاج الحديث لبعض الأمراض العقلية والعصبية . والمثل فى ذلك استعمال الصدمات الكهربائية والأنسولين والكارديازول والتريازول Cardiazol, Triazol فى علاج المرض العقلى المعروف بالشيخوفرينيا Schizophrenia . ولكن هذا العلاج إن أفاد ، فهو علاج وقى فقط ، لأن مثل هذه الأمراض يحتاج شفاؤها إلى تحليل نفسى ، يعالج به الصراع العقلى المسبب لها ، لا إلى علاج العرض ، وترك الداء الأصيل الدفين كما هو .

٤ — وقد تتحقق الحاجة للعقاب على شكل آخر، يختلف عما ذكرناه في النقطة السابقة . فهنا تمتزج عناصر العقاب مع تحقيق الأعراض العصابية ، ويكون الامتزاج قويا في حالة الهستيريا . ويكون العرض العصبي بمثابة إرضاء الحاجة للعقاب ، وفي الوقت نفسه بمثابة حل موفق بين الرغبات المكبوتة والقوى المكابتة في الضمير . وأبسط مثل لذلك احمرار الوجه . فهو عقاب لأنه علامة شعور بخجل أو خزي ، وهو أيضا يرضى الميل المكبوت لعرض الجسم وإظهاره « exhibitionism » ، إذ يستلقت احمرار الوجه نظر الناس للشخص . فبعض الناس ، منذ طفولتهم ، يمتصون فيما يمتصون من والديهم النواهي ضد تعريض الجسم للأنظار ، وخصوصاً بعض أجزائه . وهذه النواهي تكون شديدة لدى البنات أكثر من البنين . فالميل لتعريض الجسم للأنظار ، وعدم مضايقة الجسم بما يكس عليه من ملابس ، ميل طفلي يكتبه الوالدان ، بدليل السرور الذي يبدو على الطفل الصغير وهو يذهب ويجيء عريانا — وتألمه من اللباس الذي يوضع عليه ومحاولته خلعه . ويصبح النهي عن هذا الميل جزءاً من الضمير يجرمه على الذات . فإذا نظر إنسان غريب لشخص قد كبت هذا الميل فيه كبتاً شديداً ، أحمر الوجه ، أو اضطرب الإنسان في حركاته . وهذا نوع من عقاب الضمير للذات واحتجاجة عليها لكونها تحاول تحقيق ذلك الميل المكبوت . وفي الوقت نفسه ، فإن احمرار الوجه أو اضطراب الحركات يستلقت الأنظار إلى وجه الإنسان أو جسمه بوجه عام . وبذلك يجد الميل المكبوت نوعاً من التحقيق على هذه الصورة .

والمثل في ذلك أيضا خوف السقوط أو الوقوع الذي يمكن أن نعهده تهديداً بعقاب على شكل مصيبة جسمية تحدث للإنسان . وفي الوقت نفسه ، فهو نوع

من إرضاء النزعات المكبوتة لدى الشخص في أن يذنب ضد الضمير ويحرم ،
فالخوف من السقوط أو ما يشابهه ، مثل الدوار الذي يصيب بعض الناس
كثيراً ، دون أن يكون هناك سبب عضوى له ، قد يكون خوفاً من السقوط
الأدبى أو الاجتماعى . مثل الرجل الذى كان دائماً يمتلىء خوفاً من السقوط ،
عند ما يسير فى الشوارع . ويصل هذا الخوف أشده ، إذا سار فى شارع
ملىء بالملاهى ، ويقل إذا سار مع زوجته ، أو مع أصدقاء محترمين . ولم يكن
يدرك طبعاً أصل خوفه هذا . وقد تبين أنه خوف من السقوط فى الرذائل
وارتكاب الآثام ، أو من تحقيق الدوافع المنافية للأخلاق ، المكبوتة عنده
كبتاً شديداً . (١)

من كل ما سبق نتبين أولاً — أن كلا منا لا يستطيع أن يصل إلى مستوى
مثله العليا أو ذاته المثلى ؛ وأنه بذلك لا يستطيع أن يرضى ضميره فى كل
تصرفاته وسلوكه وأفكاره . فيشعر بسبب ذلك بالسخط والذنب ؛ وأن هذا
الذنب يسبب حالة من التوتر فى داخل نفسه لا يزيلها إلا العقاب الذى يرضى
الضمير ، ويجعله مرة أخرى فى توافق مع الذات .

أى أن كل انسان منا لديه حاجة للعقاب .
وثانياً — أن إرضاء هذه الحاجة للعقاب يكون على أشكال مختلفة ، منها
العقاب والتألم مباشرة ؛ أو التعويض عن الذنب والزلة ؛ أو الاعتراف مباشرة
بالذنب ؛ أو الاعتراف بطريقة غير مباشرة ، بأن يعمل الإنسان دون شعور
منه على أن يدل على ذنبه وإجرامه بدلالة من الدلالات ؛ ومنها كبت الشعور
بالذنب مرة ومرات ، حتى يصبح ارتكاب الذنب بعد ذلك أمراً عادياً لا يشعر

المجرم بجرمه ، ومنها تبرير الذنب بشتى المبررات ، وكأن الإنسان بذلك يتوسل إلى ضميره ، ويستعطفه حتى يرفع غضبه عنه ؛ ومنها إسقاط الذنب أو الجرم على ضحية من الضحايا قد تلقى جزاء ذنوب الغير ، وتقاسى عقاب جرائمهم ، مقابل أن يتخلص الإنسان المذنب مما اقترف .

ومن هذا يتضح لنا أن الإنسان الكامل ، الذى تصل ذاته إلى مستوى ذاته المثلى فى الحياة ، والذى يستطيع أن يسلك دائماً السلوك الذى يرضى ضميره ، إنسان لا وجود له .

حقا إن الإنسان يحمل بالذنوب . . وإنه لى يكفر عن ذنوبه ويتخلص منها ، كثيراً ما يتلمس العقاب ، ويوقع نفسه فى متاعب كثيرة ، ويورد نفسه موارد المقاساة . وقد يالصق بالآبرياء ذنوبه ، فيجر عليهم الويلات والعذاب ، ثم ينام هادئاً مليء جفونه ، وكأنه لم يفعل شيئاً .

إن الآثام التى يقترفها الإنسان لتختلف كمّاً ونوعاً ، تختلف فى كثرتها وقلتها ، وتتباين من مساوىء بسيطة إلى ذنوب كبيرة ، إلى جرائم فظيعة مروعة . وهذه الدرجات من الإثم والجريمة تتوقف إلى حد كبير على نوع نواة الضمير الذى تكون فى الإنسان كما وضعنا من قبل ، ثم على الظروف المختلفة التى تحيط به ، وعلى من يختلط بهم ، وعلى الأنظمة التى تتحكم فى مجتمعه ، وعلى ذوى السلطان والنفوذ فى حياته ، وعلى نوع الحياة التى يضطر لأن يعيشها ، وعلى غير ذلك من عوامل أخرى يمثّلها المرء ، فإما أن تسند القوى التى تكون منها الضمير ، أو تعارضها وتعمل على إضعافها وإحلالها ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى الباب الأخير من الكتاب .

الجريمة والعقاب :

بقيت كلمة بسيطة عن معاملة المذنب أو المجرم من الأفراد والهيئات .

كيف تكون؟ هل يعاقب؟ وكيف يكون العقاب؟
وقبل كل شيء يجب أن ننظر للمذنب أو المجرم من ناحيتين : مذنباً نحو
أفراد ، ومذنباً نحو المجتمع . والمثل في ذلك الرجل الذي يعتدى على آخر
بسبب أو إهانة أو ضرب . إنه يعد معتدياً على فرد ، ومعتدياً على نظام المجتمع
الذي يؤمن حياة الأفراد ، ويمنع الفوضى من أن تنتشر بينهم ، والذي من
أجل ذلك يشرع الأنظمة القوانين ، التي يجب أن يسير الناس في هداها ،
وينصب حراساً وحكاماً يعملون على أن يحترمها الناس ، ويعاقبون من
يخدشها أو يكسرها .

فالمذنب في كلتا الحالتين يشعر بذنبه . إن كان سوياً ، وتستثار لديه الحاجة
للعقاب . وفي بعض الحالات ، نجد أنه إذا لم يعاقب المذنب أو المجرم ،
فترض في تلك الحاجة ، ويتخلص بذلك من ثقل ذنبه عليه ، فإن الشعور
بالمذنب الذي يظل كامناً في نفسه ، على شكل تور وضييق داخلي ، قد يجره إلى
الإثم أو الجريمة مرة ثانية ، حتى يكشف أو يعترف ، ويعاقب على الجريمة .
ولذلك لا نعجب حين نجد مجرماً يعترف دون مبرر ظاهر بجرائم سابقة ،
ويطلب من القضاء أن يضمها لحسابه الإجرامي . وإذا لم يعاقب في المرة الثانية ،
فقد يستمر في إجرامه ، ويقل بسبب ذلك الشعور بالمذنب ، نتيجة لتغلب
الغرائز الهمجية في الذات السفلى — تشد أزرها الرغبات المكبوتة في الذات ،
المنافية للأخلاق والمجتمع — على ضمير الإنسان . ولقد سئل بعض المجرمين
العتيدين في الإجرام ، عن سبب استمرارهم فيه ، فقالوا إنه يرجع إلى أنهم لم
يعاقبوا على أول جرم اقترفوه . . والمذنبون والمجرمون في هذه الحالات
يكونون غالباً أصحاب ضمائر ضعيفة غير متماسكة ، أو يكونون مكبوتين
كبنا فظيلاً .

وفي بعض الحالات الأخرى ، قد يزيد إهمال المذنب أو المجرم ، من شعوره بالذنب ، فيقاسى ألماً داخلياً فظيماً ، وخزياً وعاراً مستمراً ، أمض في ألمه وأوجع في وخزه من العقاب الذي يوقع عليه من الخارج . ويضطر لأن يعاقب ذاته بإذلالها بالتوسل لمن أذنب ضده ، أن يشمله بالمغفرة . وفي مثل هذه الحالات ، يكون المذنب أو المجرم ذا ضمير قوى متماسك في مثله في الغالب ، وتكون رغباته المكبوتة في ذاته قليلة ، لأن طاقات الغرائز الهمجية قد حولت من أول الحياة إلى نواح اجتماعية صالحة مفيدة .

وقد دعت هذه الحالات الأخيرة بعض الفلاسفة وبعض علماء الاجتماع بالمناداة بإلغاء العقوبات فمثلاً نجد برنارد شو يقول :

« إن الحياة لن تزول وتنتهى ، إذا لم تقابل الجريمة بالعقاب ، كما أنها لن تزول لأننا لا نواجه المرض بالعقوبة . إن العقاب خطأ وخطيئة » .

إن في قول برنارد شو ومن يرى رأيه مغالطة كبيرة . فهم يكادون يعترفون بأن الجريمة مرض ، وهى فى الواقع مرض نفسى . والأمراض النفسية لا يكون ضررها مقصوراً على من ابتلى بها فقط . ولكنها تجلب الشقاء للغير أيضاً . . إنها إذن تشبه الأمراض المعدية . والمجتمع لا يسمح بالمبتلين بها أن يتنقلوا فى أوساطه فينشروا العدوى والعلل والسقم بينهم . . إنه يجمعهم فى معزل خاص ، ويضع عليهم حراساً شداداً يمنعونهم من الخروج منه حتى يعالجهم ، ويضمن بذلك على سلامة الأفراد الذين سوف يخاطونهم .

وكذلك الأمر فى الجريمة ومقترفها . . فقد وجد المجتمع من قديم ، أن يمنع شر المجرم عن أفرادہ . لذلك سن له قانون العقوبات ، وجعله بمثابة علاج للجريمة ، لا بد أن يتجرع المجرم منه ما يمكن أن يسد حاجته للعقاب

تبعاً لجرمه ، عل ذلك يشفيه ، ويرجعه إلى حظيرة المجتمع ، سليماً معافى ،
خالصاً من دوافعه الإجرامية .

ثم إن المجتمع أراد من العقوبة شيئاً آخر ، وهو أن يجعل من المجرم
أمثولة لغيره ممن قد يحملون ضمائر خائفة ، فيعملون خوفاً من غضب المجتمع
وسخطه عليهم ، وعقابه لهم ، على أن يشدوا أزر تلك الضمائر ، وينفخوا
في بصيص النور المشتعل بها ، كيما يزيد سناؤه ، فيبدد بذلك ظلمات الرغبات
الهمجية المتأججة في النفس ، المستعدة للوثوب ، وإعمال مخالبتها في النظم
الاجتماعية والأخلاقية التي يعيش الناس - ويجب أن يعيشوا - في ظلها ،
حتى يكونوا آمنين في نفوسهم ، مطمئنين أحدهم للآخر .

قد يكون الأفضل طبعاً ، أن نعالج المجرم علاجاً نفسياً ، وهو في معزله ،
أو في سجنه ، حتى نضمن شفاؤه من دوافعه العدوانية الأثيمة . ولكن أنى
لنا بالمحللين النفسيين الذين يمكنهم أن يعالجوا المجرمين والآثمين ، وما أكثرهم ؟
وأنى لنا بالوقت الذي يستلزمه العلاج ، وهو طويل مضم ؟ إن أكبر مانسطيع
القيام به ، هو :

١ - الوقاية من عوامل الإجرام ، وذلك بالاهتمام بتربية النشء
في سنواته الأولى ، عند ما يكون في أحضان والديه وخصوصاً أمه .

٢ - معالجة المشكلات النفسية عند ملاحظتنا إياها في الأطفال
أو الأحداث الجائحين ، إذ من السهل أن نقوم بهذا العلاج . بينما لو أهملنا
هذه المشكلات ، فقد تنفقم مع نمو الحدث وتؤدي به إلى الإجرام .

من أجل ذلك ، كان الاهتمام بمحاكم الأحداث ، ودراسة حالة الحدث
الجاني ، واعتباره مريضاً بحاجة إلى علاج لا عقاب .

٣ - عمل الوالدين على إيجاد انسجام بينهما من أجل تنشئة أطفالهما .

إن افتراق الزوجين ، وانفصالهما روحيا في المنزل ، أو روحيا وماديا بالطلاق ، كل هذا يسبب مشكلات فظيعة للأطفال ، قد تؤدي إلى إجرامهم كبارا . لقد وجدت عند ما كنت أقوم ببحث على الأحداث في الإصلاحات بمصر ، أن أكثر من ٩٠ ٪ منهم جمحوا وانغمسوا في الإجرام نتيجة لانفصال الوالدين أو تنازعهما ، ونتيجة لاضطرار الطفل لمعاشرة زوجة أب أو زوج أم .

وقد يكون من أهم طرق الوقاية من شر الاختلاف والتنازع والانفصال ، أن يعنى كل من الفتى والفتاة ، وكذلك أهلهم ، بأن يكون الزواج قائما على أساس من تقارب الأمزجة والطباع والمثل ، لا على أساس مادي ، أو مظهرى ، أو عائلى ، أو غير ذلك مما يحطم الحياة الزوجية تحطيا تاما في بعض الأحيان ، أو تحطيا روحيا في بعض الأحيان الأخرى . ويقاسى الأطفال نفسيا من ذلك شر المقاساة ، كما يقاسى المجتمع منهم بعد أن يكبروا .

٤ - مراجعة قانون العقوبات : ومحاولة الحاكم دراسة نفسية المجرم الذى يقف أمامه ، وكذلك تاريخه ، ووازع الجريمة ، حتى يحكم بالعقاب المناسب الذى من شأنه أن يكون أداة إصلاح . ففي جرائم متماثلة ، قد يكون أصلح لمجرم أن يوضع تحت المراقبة مدة من الزمن ، بدلا من عقابه بالسجن ؛ بينما يكون أصلح لمجرم آخر اقترف الجريمة نفسها أن توقع عليه عقوبة من العقوبات .

ولذلك يهتم كثيرا الآن بأن يدرس علم النفس الجنائى دراسة واسعة في الكليات التى تعد رجال القضاء بل ورجال الشرطة أيضا .

بل يفكرون في بعض البلاد بأن يكون بين أعضاء المحاكم التي تحكم
المجرمين رجل مختص في التحليل النفسي .

إن العقوبة التي لا تتناسب مع الجرم ، قد تحطم في المجرم فكرة العدالة ،
فيخرج إلى المجتمع بعد توقيع العقوبة عليه حائقا ، مليئا بروح العدوان ، الذي
يدفعه للإجرام ثانية .

كما أن العقوبة الطفيفة قد لا تسد حاجة المجرم للعقاب ، فيبقى جزء من
الشعور بالذنب في نفسه . وقد يدفعه هذا إلى الجريمة ، كما سبق أن وضعنا
من قبل ، حتى ينال العقاب الذي يخلصه من ذنبه القديم وذنبه الجديد .

ثم إن السجون نفسها بحاجة إلى إصلاح ، ومعاملة المجرمين فيها بحاجة
إلى أن تقوم على أساس علمي نفسي . ولا يتسع المقام للخوض في ذلك كله في
بحث مثل هذا البحث .

الباب الرابع

هزيمة الضمير وانحلاله

مقاومة الذات السفلى للضمير :

رأينا من قبل كيف أن الضمير يتحكم في النفس الغريزية الهمجية ، تلك التي سمينها بالذات السفلى . وأشرنا إشارات عابرة إلى كيف أن غرائز هذه الذات ودوافعها ، تستطيع في بعض الأحيان أن تنجح في صراعها مع الضمير ، وتتغلب عليه ، وتسوق المرء إلى الجموح في المجتمع .

وسوف نبحث الآن في الطرائق التي تتمكن بها الذات السفلى من النجاح في صراعها مع الضمير ، وتبدأ تتحكم فيه ، وبذلك تدفع الإنسان لأن يسلك سلوكا شائنا بالرغم من حوزة قوة أخلاقية عظيمة في نفسه .

ويبدو طبعا أننا بهذا نعالج موضوعا عظيم السعة ، شديد التعقيد ؛ وقد نضطر لأن نعيد شيئا مما سبق ذكره في الأبواب السابقة ، لكي نوضح تماما كيف أن الضمير في بعض الأحيان يقع فريسة للهزيمة أمام دوافع الذات السفلى .

إن الذات السفلى ، مليئة بدوافع ، إذالم تجد ما يحكمها ويضبطها ، فإنها تجر الإنسان إلى أن يقوم بسلوك وأفعال غير اجتماعية ، ومنافية لما تواضع عليه المجتمع من مثل وأخلاق وتقاليد . وما علينا لكي نفهم ذلك ، سوى أن نلاحظ طفلا في الثانية أو الثالثة أو الرابعة من عمره . إنه لو ترك

ونفسه ، دون رقابة أو ضبط ، ليقطب المنزل رأسا على عقب . بل ربما ينتهى به الأمر لأن يدمر نفسه ، أو على الأقل لأن يتسبب فى أضرار كثيرة تحل به . إننا لا نستطيع ، لكى نؤمنه ضد دوافع نفسه الهمجية ، أن نتركه وحيدا إلا بالقدر الذى نستشعر منه أن أوامر الكبار ونواهيهم قد لقيت صدى فى داخل نفسه ، أى قد تمثلها الطفل ، فأصبحت قوى داخلية رادعة له عن الإضرار بنفسه أو بغيره . أى أصبحت بمثابة نواة لضميره أو ذاته العليا التى سوف تنمو وترعرع فيما بعد .

إن السلوك الصالح ، أو السلوك الإجرامى ، ليتوقف تبعاً لذلك على النسبة بين شدة الدوافع الهمجية والمنافية للمجتمع ، والقوى الضابطة المتحركة فى هذه الدوافع من الخارج أو من داخل النفس . إذ يتوقف على الصلة بين شدة هذه الدوافع ، وتلك القوى سلوك الذات أو النفس ، أو صورة شخصية المرء فى الحياة .

ولذلك يجب أن نأخذ بعين الاعتبار ، عندما ندرس الظروف التى تعمل على إضعاف الضمير ، ليس فقط العوامل التى تنخر فيه ، وتساعد على تفكيكه ، بل يجب أيضا أن ندرس العوامل التى تساعد على إيجاد شدة فى دوافع الذات السفلى أو النفس الهمجية ، إن وجدت مثل تلك العوامل . ويجب أن نتذكر ما سبق أن أشرنا إليه من قبل ، وهو أن من مظاهر ضعف الضمير ، كثرة الآثام ، والجرائم التى تصدر من المرء ، والتى معناها طبعاً جموح الإنسان وكسره القواعد والمستويات الخلقية ، وخروجه على النظم الاجتماعية والقوانين والشرائع التى وضعت لكى يعيش الإنسان فى ظلها ، ليضمن لنفسه حياة فردية آمنة ، وسط مجتمع آمن متناسق .

سرة دوافع الذات السفلى :

فن حيث شدة الدوافع في النفس الهمجية ، نجد أن علماء النفس المعتدلين ، وعلى رأسهم مكدوجل ، يشيرون إلى أن الجموح والإثم والإجرام ، ليست في الحقيقة سوى مظاهر طبيعية للدوافع الغريزية التي لا تجد قوى كافية تضبطها وتتحكم فيها . فيقول العلامة الانكليزي س . برت C. Burt في كتابه «الطفل الجاح» The Delinquent Child إن أنواع الجموح المختلفة من سرقة أو عدوان ، أو خطايا جنسية إلى غير ذلك ، بل والتشرد أيضا ليست سوى تعبيرات ومظاهر لغرائز معينة بالذات ، بالمعنى الذي يتكلم في ضوءه مكدوجل عنها . وعلاوة على ذلك ، فإنه يقول إن هناك عاملا عاما لشدة الغرائز أو قوة نواحيها الانفعالية . فالغرائز من مقاتلة ، وجنسية ، وحب سيطرة ، إلى غير ذلك ، بالرغم من اختلافها في النوع ، فإنها محملة جميعا بطاقة أو قوة أو فعالية ، تختلف باختلاف الأفراد . وبما أن الغرائز قوى فطرية غير مكتسبة ، فإن الطاقة أو القوة أو الفعالية التي تشحن بها ، هي أيضا فطرية غير مكتسبة . ومعنى ذلك أن الفرد الذي يرث هذه الطاقة الغريزية بدرجة عظيمة — إذا تساوت الظروف الأخرى — يكون معرضا للجموح أكثر من ذلك الذي يرثها بدرجة أقل . إنه يكون بحاجة إلى مقدار من الضبط — داخليا كان أم خارجيا — أكبر من مقدار الضبط الذي يكون الآخر بحاجة إليه ، إذا أردنا ألا تنتج هذه الغرائز به اتجاهها غير اجتماعي وغير أخلاقي .

ويرى برت Burt أيضا ، أن نوع الغريزة نفسها له أهمية كبرى في تعرض الإنسان للشذوذ والجموح والإجرام . ويقسم الغرائز من حيث نوعها إلى قسمين : قسم إيجابي ، مثل المقاتلة ، والغريزة الاجتماعية ، والغريزة الجنسية

وغريزة السيطرة ، وقسم سلبي مثل الخوف ، والنفور ، والخنوع (١) .
فالأشخاص الذين لديهم بالفطرة ، غرائز إيجابية قوية ، يكونون عرضة
للجموح والإجرام ، أكثر من أولئك الذين يرثون غرائز إيجابية ضعيفة ،
طبعاً إذا تساوت الظروف الأخرى ، مثل المحيط وتأثيره ، ومعاملة الوالدين
ونوع المخالطين للشخص إلى غير ذلك .

أما أولئك الذين يرثون الغرائز السلبية بشكل قوى ، فإنهم يكونون
عرضة للأمراض النفسية ، أو يكونون عرضة للعصاب النفسي ، أكثر من
أولئك الذين يرثون تلك الغرائز بدرجة ضعيفة .

والتحليل النفسي يتفق في هذه الآراء ، كما يتفق في آراء أخرى سبق
أن ذكرناها من قبل ، مع هذه المدارس الأثرثوذكسية . فهو يعترف بأهمية
هذه الغرائز وأهمية طاقاتها وقواها وفعاليتها الفطرية . ولكنه درس المؤثرات
البيئية ربما أكثر من غيره ، واهتم أيضاً أكثر من غيره من المدارس بما لهذه
المؤثرات البيئية من قيمة كبرى في تعديل الغرائز الأصلية ، وتوجيهها
وجهاً خاصاً .

أثر التمريل في تكوين المصمير

وأول وأبسط هذه المؤثرات المحيطية ، التدليل ، أو ما يمكن أن يعبر
عنه بالتسامح الزائد الذي لا مبرر له ، مع الطفل ، والذي يتمخض عن السماح
له بأن يعبر عن دوافعه الغريزية بأية طريقة توصله إلى أغراضه ، ولو كان
ذلك على حساب الآخرين ، دون أن يتعرض في قيامه بذلك لأي منع ،

(١) الغريزة الإيجابية هي تلك التي يحققها المرء باتخاذ موقف إيجابي إزاء مثيرها . فغريزة
المقاتلة تدفع الإنسان للقتال ؛ والاجتماعية تدفع للبحث عن غيره لكي يجتمع به ؛ والجنسية تدفعه
للتقرب من الجنس الآخر ؛ والسيطرة تدفعه للكفاح والغلبة والتفوق .

أما الغريزة السلبية فهي التي يكون موقف الإنسان عند تحقيقها سلبياً إزاء مثيرها . فهو
يحقق غريزة الخوف بالهرب ؛ والنفور بالابتعاد ؛ والاستكانة بالاستسلام والخضوع .

أو ردع ، أو عقاب يذكر . ومعنى ذلك ، أن مثل هذا الفرد ، يتعلم منذ طفولته أن الاثم والجريمة مفيدة ، لأنها توصله إلى أهدافه ، وأن ليس هناك من ضرورة تلجئه إلى أن يحسن سلوكه ويضبطه حتى يكون سلوكا اجتماعيا ، لأن في ذلك تضحية من جانبه ببعض رغباته وأهدافه ، وقد تعود منذ حدثته أن يحقق رغباته وأهدافه كلها ، وأن يستشعر الرضا واللذة من ذلك مهما أدى تحقيقها إلى الإضرار بالآخرين . لقد تعود أن ينقاد لدوافعه البدائية أنى توجهه ، دون أن يجابه مانعا أو حاجزا أو ضابطا . وبذلك لا يتمثل في نفسه أو امر أو نواهي تصبح قوى ضابطة داخلية . أى لا يتكون لديه ذات عليا أو ضمير يذكر . فيجمع صغيرا ، ويجرم كبيرا ، دون شعور تبعاً لذلك ، بحاجة إلى عقاب . بل إنه ليعجب من أى عقاب يوقع عليه ، ويعده ظلما وعدوانا ، يرد عليه بظلم وعدوان وإجرام .

وفي الحياة الواقعية ، يشك كثيراً في إمكانية وجود مثل هذا الصنف من الإنسان . إذ في الغالب نجد أن أكثر الوالدين تسامحا مع طفلهم ، مضطرون لصالحه وصالحهم ، أن يرسموا له بعض الحدود ، ويكبلوه ببعض القيود ، ويفرضوا عليه شيئا من الضوابط ، ولا يمنحوه تلك الحرية المطلقة المطلقة لتحقيق رغباته ودوافعه الانانية . ولذلك يتكون في مثل هذا الطفل ضمير إلى درجة ما ، ويصبح قادراً على استشعار الذنب إلى حد ما أيضا .

ولكن ضمائر هؤلاء الأفراد لا تكون من القوة بحيث تضبط الدوافع الهمجية الثائرة في ذواتهم السفلى ، وتكبح جماح رغباتهم الانانية ، التي تزخر بها نفوسهم الواقعية .

ولذلك كثيراً ما ينهزم الضمير أمام تلك الدوافع والرغبات ، فيجمع هؤلاء الأفراد ويجرمون ، ويأثمون ويذنبون ، ويعجز العقاب في صورة

المختلفة أن يكون ضابطاً مانعاً ، وقوة رادعة لهم . بل قد يزيد من استئثاره
دوافعهم العدوانية ، وينقلبون بسببه مجرمين قاسين في إجرامهم ، آثمين
مستهترين في إثمهم .

إننا لنجد في الحياة أمثلة من هذا النوع من الإنسان أو قريبة منه : في
الطفل الوحيد ينشأ بين أحضان والدين متساهلين ، أو في الطفل الذكر بين
عدة أخوات ؛ أو في الطفل الأنثى بين عدة ذكور ؛ وفي هؤلاء خصوصاً
إن كانوا ضعافاً في ذكائهم ، أو ضعافاً في بنيتهم ، معرضين للأمراض السكثيرة
التي تجعل والديهم أكثر تسامحاً معهم ، مما لو كانوا أصحاء أشداء .

كما نجد أمثلة لهذا النوع أيضاً ، في الطفل ذي الأبوين المستهترين اللذين
يطبقان عليه مستوياتهما الخلقية الوضيعة ، فيتركانه يحقق رغباته وشهواته
ودوافعه ، دون تقيد بنظام اجتماعي ، أو مثل خلقية . إنه لا يلبس فيهما
ضابطاً متحكماً ، ولا يرى فيهما زاجراً أو رادعاً ؛ وبذلك لا يتمثل منهما
داخل ذاته ضميراً يذكر .

أمر القسوة والشر في نكوبين الضمير :

وثمة مؤثر محيطي آخر ، يختلف الاختلاف كله عن التدليل أو التسامح
المبالغ فيه ، وهو العقاب المبالغ فيه ، والقسوة الطاغية التي لا مبرر لها . فبعض
الأطفال يقاسون من والديهم غلظة وفظاظة ، ولا يستشعرون منهم حباً أو
عطفاً يذكر . إنهم دائماً ينتقدون تصرفاتهم ، ويحقرونهم ويعاقبونهم على أتفه
الأسباب عقاباً صارماً . وبذلك يكون الطفل من هؤلاء في حالة فقر مدقع
للحب والعطف . لا يستشعر رضا على سلوك طيب ، ولا يلبس ثواباً إذا عمل
تبعاً لما يريده والداه . ويتمثل الطفل في ضميره ، الأبوين على هذه الصورة
العابسة القاسية الفظة . وتصبح القوة الداخلية المتحركة فيه متجهة شديدة التجهم ،

مكفهرة قبيحة الا كفهرار . وتشعر النفس الواقعية بيأس منها ، فتثور عليها ولا تلقى لها بالا ، ولا تعمل لها حسابا ؛ بل تلتمس اللذة في أن ترضى النفس الهمجية . وتحقق دوافعها الأولية ورغباتها الخاصة الأنانية . ماذا تخسر بذلك التصرف ؟؟ إنها لا تتوقع جزاءا ولا شكورا من الضمير إن قامت بما يرضيه .. بل على العكس ، تراه جامدا دائما ، عابسا دائما ، رافعا يده للبطش بهادئاً . لقد كرهته وأبغضته ، وفقدت بهذه المعاملة الظالمة ، إحساسها بالعدالة الداخلية . فتلول ظهرها إليه ، ولتقبل على رغباتها الأنانية الخاصة ، وعلى لذات النفس البدائية ترتشف منها ما تشاء ، ولتدعه يضرب ما شاء له الضرب ، ويعاقب ما حلى له العقاب . وبذلك تنغمس الذات الواقعية في الإثم ، وتهيم في ضلالة الجرائم لا يردعها عقاب ، ولا يقفها عن غيرها عذاب .

هنا أيضاً نشهد مصرع الضمير وهزيمته .

إننا نجد أمثلة هذا النوع من الأفراد في الطفل ذى الوالدين القاسين ؛ أو في الطفل المحروم من عطفهما حرماناً كبيراً ، لأنهما متلهيان عنه ؛ أو في الطفل غير المرغوب فيه ، لأنه أنثى والوالدان يحبان الذكور ، أو لأنه ذكر وهما يحبان الإناث ، أو لأنه ابن زوج منهما ، وليس ابناً للآخر ، أو لأنه يتيم يرى فيه الوالد الذى يعاشره عبئاً ثقيلاً ، يتمنى لو يرفع عنه . بل وقد يشعره كثيراً بما يحس به نحوه ، وهكذا .

ولهذا يجمع الطفل فتى ، ويجرم راشداً ، ويتغلغل في الفساد ، ولا ينفعه العقاب ، إلا أن يزيده كراهية وبغضا للمجتمع ونظمه ، ويلهب ثورته ، وينفخ في سعير فورته .

إن مثل هذا الإنسان ليس بحاجة إلى عقاب يقفه عن غيه ، واسكنه

بحاجة إلى عطف وحب يتمثلهما ، من محيطه ، من المتنفيذين في مجتمعه ، حتى يدخل شيء من النور في ذلك الضمير المعتم ، يمسح شيئاً من كآبته ، ويجعله قادراً على أن يبتسم ويرضى ويحب .

إن مثل هذا العلاج ليس بالأمر اليسير مع المجرمين أو الجاحمين من هذا الصنف . بل إننا لنجد في أول الأمر عندما نتسامح معهم ، ونشعرهم بشيء من العطف ، رد فعل فظيع على شكل سلوك زائد في العنف منهم ، وجروح أشد خطراً من جموحهم السابق . إذ يرون في تسامحنا معهم ، وعطفنا عليهم ضعفاً وخوراً وهزيمة منا . ولكن التسامح التدريجي ، والعطف المتسلسل ، وفوق ذلك ، الصبر والأناة — كل ذلك كفيل لأن يحول الجموح والعدوان إلى قوى خائفة تطأطئ الرأس أمامنا ، وإلى دموع سخينة تنهاطل من مآقي المجرم ، وإلى اعتراف صريح بأن ليس في الحياة من يحبه ويعطف عليه ، وهو مفتقر إلى الحب والعطف ، وإلى من يقيه كراهيته للعالم ، وتخريبه فيه . فإذا وصلنا إلى هذه المرحلة ، يمكن أن نبدأ تربيته من جديد ، وذلك بأن نجازيه خيراً كلما تعاون معنا في ضبط دوافعه ، ونعطيه عملاً يقوم به ، ويرد له اعتبار المجتمع إياه؟ ويمحو شعوره بأنه منبوذ منه ، ويسد تلك الحاجة التي تكلمنا عنها في الباب الثاني ، وهي حاجة المرء لأن يحتاج إليه .

إن الطرق الحديثة القائمة على التسامح والرفقة في معالجة الجموح في الحالات التي من هذا النوع ، قد أثبتت جدارتها ونجاحها ، بالرغم مما تسببه من العناء الكبير ، وما تتطلبه من المهارة والتبصر والصبر ، بالمقارنة مع الطرق التقليدية القديمة ، عديمة الجدوى في الغالب ، القائمة على مجرد القسوة وزيادة الضبط .

أثر التمييز في معاملة الطفل

وثمة مؤثر محيطي آخر هو عدم ثبات المعاملة التي يعامل بها الطفل . فهو في بعض الأحيان يعاني عقابا ظالما عنيفا من والديه ، وفي بعض الأحيان الأخرى يعامل باللين والتسامح الزائد والتدليل . وقد أشرنا إلى هذه المعاملة في الباب الثاني ، وما ينتج عنها من تمثل الطفل في ذاته العليا أو ضميره مثلين متناقضين ، يجعلانه يقف حيران في الحياة ، لا يدري على أي نهج منهما يسير . ثم إذا به يضحي بهما معا ، وبضميره الذي تتكون نواته منهما ، قوة منقسمة متخاذلة خائرة ، لا تستحق أن تحترم أو يعمل لها حساب . ويتجه الطفل إلى رغباته الانانية ، وإلى غرائزه البدائية ، أو تتجه الذات إلى رغباتها الخاصة وإلى دوافع الذات السفلى تحقها ، مولية ظهرها للضمير ، الذي هزمه انقسامه ، وصرعه تفرقه ، وخذله شقاقه . ويجمع الإنسان في الحياة غير مكترث بالقوى الاجتماعية أو الخلقية ، لأن انطباعه عنها أنها قوة منقسمة ، غير متألقة وغير منسجمة .

على أن هذا الصنف من الناس بالقدر الذي يجمعون به ويجرمون ، قد يسلكون أيضا سلوكا اجتماعيا طيبا . إنهم على قدر ما يعتدون على الغير ، قد ينصرون للضعيف ، ويردون عنه أي عدوان يقع عليه . وإنهم قد ينهبون ويسرقون ، وفي الوقت نفسه قد يساعدون الفقير ، ويعطفون على البائس . وكأنهم يسرون في الحياة على غير هدى ، لا يعرفون أين يتجهون ، ولا على أي أرض يثبتون أقدامهم .

والطفل الذي يلقي هذه المعاملة غير الثابتة أو المذبذبة ، يضطر لأن يلجأ إلى اختبار ذويه ، والقيام بشيء يشبه التجربة عليهم ، حتى يتبين أي نوع من المعاملة يعاملونه بها إزاء السلوك الذي قام به ، أو يرغب في أن يقوم به .

هل يا ترى إذا سلك ذلك السلوك ، يفقد عطفهم وحبهم عليه ، أم يستبقيه ويظل مستمتعاً به ؟ وقد يصبح هذا الاختبار لزوماً متكرراً (Obsession) أو عادة متمكنة ، تؤدي به إلى ارتكاب أعمال عدوانية ، أو تحقيق رغبات غير اجتماعية ، ليستوثق أنه بالرغم من ذلك ، لا يزال موضع حب ذويه . وقد تكون هذه الأعمال العدوانية ، أو تحقيق الرغبات الانانية أمراً خيالياً يتخيل الطفل أنه قام بها فعلاً . ومثل الأولى مثل الولد الذي كان يعتدي على أمه باللطم ، ثم يطلب منها أن تقبله عدداً من المرات ضعف عدد لطمه إياها . ومثل آخر درسه فلوجل Flugel ، حالة شخص كان في كل مساء يرجع إلى المنزل ، يبحث عن شيء أو أي سبب يثير تدمره ، ثم ينفجر لأنما ساباً شاملاً . فإذا ثبت ذنوبه في الاختبار ، وظلوا هادئين مسالمين عطوفين عليه ، هذا نأثره ، وتحول إلى شخص مسالم عطوف^(١) .

إن هذا التصرف من جانب الرجل ، كان نتيجة لشعور كبير بالذنب تجاه زوجته ، إذ لم يكن مخلصاً لها . وكأنه بكثرة تدمره وعدوانه كل يوم ، يريد أن يطمئن نفسه ، إلى أنها باقية على حبها له مهما فعل . أي كأنه بشكل لا شعوري يؤمن نفسه بصفحتها عنه ، وغفرانها آثامه .

ومثل الأعمال العدوانية الخيالية ، مثل الطفل الذي يذكره برت Burt في كتابه « العقل الشاذ » The Subnormal Mind الذي كان يضيق أمه كثيراً وقت النوم بأسئلة كثيرة يوجهها لها ، عن ذنوب وخطايا يقول إنه لم يقتربها . ولكنه يسألها « إذا كنت قد ارتكبتها ، فإنك تصفحين عني يا أماه أليس كذلك ؟ »

وكان الولد يروح تحت عبء شعور كبير بالذنب ، ناتج عن أن ذاته كانت تزخر برغبات فظيعة غير أخلاقية عند النوم .

إن علاج الأفراد الذين من هذا النوع يتأني بإصلاح التذبذب في المعاملة من جانب المربين ، وذلك بأن يثبتوا على نهج واحد في معاملة الطفل . وبأن يثبوا الطفل بانتظام على سلوكه الطيب كلها سلوكه ، وأن يشعروه في نظام أيضا بسخطهم عليه ، بل وأن يوقعوا عقابهم عليه ، إذا لم يصل سلوكه إلى المستوى المطلوب ، مع مراعاة ما سبق أن ذكرنا من حيث أن الثواب أو العقاب يكون متناسبا مع سلوكه ، ومن حيث ألا ينظر للطفل كأنه فرد اكتمل نموه ، فينتظر منه أن يصل سلوكه إلى المستوى المطلوب من الراشد ، بل ينظر له طفلا ينمو ، وتترقى مثله بالتدريج .

أما ذلك الاختبار والتلمس والتحسس لاتجاهات ذويه والمتنفذين فيه ، بالقيام بأعمال عدوانية ضدهم ، أو مخالفة لمثلهم ، فيمكن معالجته بتفهم السبب أو الأسباب الحقيقية العميقة لمشاعر الذنب التي تؤدي إلى الاختبار ، ومعالجته منها حتى تمحي وتزول . أو بأخذ اتجاه صبور رحيم متسامح معه ، وإشعار الفرد بأننا ننظر إلى اختباره كما لو كان هوا صديانيا . وبذلك تثبت المثل الطيبة الرجاجة في ضميره ، ويبدأ يستشعر شيئا من الخجل وخيبة الظن أيضا من تلك الأعمال العدوانية ، فيقلع عنها .

وزيادة على الحالات السابقة التي رأينا فيها كيف يصرع الضمير ويهزم ، نجد حالات أخرى ، يعرض الضمير فيها إلى شيء من الهزيمة قد تكون وقتية أو متكررة . ففي بعض الأحيان تثور الذات ضد الضمير المتحكم فيها وتمرد عليه ، عند ما يثقل عليها سلطانه وجبروته وظلمه . فبعض الأشخاص ،

عندما يواجههم المجتمع بأمر يمنعهم من القيام به ، نجدهم ينجذبون إليه ويقومون به ، بالرغم من أنه لا يحمل لهم فائدة شخصية ، أو لذة ذاتية . أى أن النواهي الجديدة قد تغرى بعض الأشخاص بأن يقوموا بها ، وقد تغرى الأوامر الجديدة هؤلاء بكسرها والثورة عليها ، بالرغم من تمثلهم إياها في ضمائرهم . وكأن الذات في هذه الحالة تحس تهديدا جديدا لسيانها وحريتها المحدودة ، فتعمل على أن تؤكد نفسها محتجة على تلك القيود الجديدة التي يعمل الضمير على أن يكبلها بها . ولذلك تشور ضده ، وتمكسر هذه الأوامر والنواهي . أو بمعنى آخر ، كأن هذا القيد الجديد يعمل على أن يشعرها بنقص زائد تجاه الضمير ، فيشير فيها ذلك ، غريزة السيطرة والنزعة للتفوق التي تحققها على شكل ثورة ضد الضمير ، ومخالفة له فيما يميل عليها من أمر جديد .

وفي بعض الأحيان نجد أن الثورة ضد الضمير تسقط على من يمثلون الضمير خارج النفس ، على ذوى السلطان مثلاً من مربين ، أو رؤساء أو حكام أو غيرهم . فبين الناس أشخاص ثائرون دائماً على ذوى السلطان ، حانقون حاقدون عليهم مهما تبدلوا ومهما اكتملوا . وليس هذا في الحقيقة إلا انعكاساً لثورة ذات الواحد منهم ضد الضمير المتنفذ فيها ، الضاغظ لها ، الرقيب المتيقظ عليها ، ومحاولة إرضاء دوافع الذات غير الاجتماعية ودوافع الذات السفلى بهذه الوسيلة .

وثمة حالة أخرى تبدو فيها مظاهر هزيمة الضمير . فالذات قد تزخر بدوافع الثورة والاحتجاج ضد الضمير ، ولكنها لا تستطيع أن تحققها كلها ، فتكبت هذه الدوافع كبتها جزئياً ، وتستشعر الذات أنها معرقة مكبلة ، دون أن تدرك تماماً السبب الحقيقي لذلك . وإذا بالإنسان حاقد على أولئك الذين لم

يشغلهم السكبت الذى يحس ضغطه فى ذاته ، حاقداً على أولئك الذين يستمتعون فى حياتهم بحرية أكثر مما يستمتع بها ، ثم إذا به يشور ضدهم ، ويضطهدهم ويؤلب الناس عليهم . وكثيراً ما تحدث ثورات اجتماعية بسبب ذلك ، يرضى الناس فيها دوافع نفوسهم الهمجية ، ورغباتهم الذاتية المكبوتة ، دون أن يستطيع الضمير ضبطها والتحكم فيها .

ضعف الضمير :

أوضحنا فيما سبق أثر الذات والذات السفلى فى الضمير . وكيف تؤثر بعض ظروف البيئة فى الإنسان تأثيراً من شأنه أن تسقط الذات العليا مندحرة أمام قوى الذات السفلى أو النفس الهمجية ، وأمام الرغبات المكبوتة فى النفس الواقعية التى لا يقرها الضمير . والآن نتكلم عن العوامل التى بسببها يضعف الضمير ، وتمزق قواه .

وأول عامل يمكن أن نذكره ، عامل وراثى لا دخل للإنسان فيه ، ولا حول له ولا قوة عليه . وهو عامل الذكاء . فإذا كان الذكاء الذى يرثه الإنسان قليلاً محدوداً ، كان تكوين ضميره ضعيفاً محدوداً أيضاً . وذلك لأن مثل هذا الإنسان ، فى كل مرحلة من مراحل حياته ، لا يستطيع أن يدرك قيمة الضوابط والروادع والأوامر والنواهى التى يفرضها عليه المتنفذون فيه . إنه لا يستطيع أن يدرك لماذا يقف المجتمع بينه وبين تحقيق دوافعه الأصلية ، ورغباته الذاتية . وبذلك لا يتمثل من المجتمع قوى الضبط والأمر والنهى بدرجة التساند والتغلغل نفسها ، التى يتمثلها بها الإنسان الذكى . ولذلك نجد المعتوه والأبله أقرب إلى حيوان خال من قوى ضبط خلقية واجتماعية فى داخل نفسه ، أى يكاد يكون خالياً من الضمير . ونجد المأفون Moron — وهو أقل درجة فى الذكاء ممن نعرفه بالغبي — ذا ضمير ضعيف مفكك ،

سريع التحلل والاندحار أمام دوافع النفس الهمجية . ونجد الغبي على وجه العموم كثير الإثم والجوح والإجرام إذا ما قورن بالإنسان الذكي . كما نجد أيضا أن الأذكاء ، في الغالب ، يكونون ضئلا قوية متساندة الميول ، منسجمة التركيب ، تتحكم في نفوسهم الواقعية تحكما لطيفا مريحا ، دون اللجوء إلى أعمال كبت شديد فيها قد يؤدي إلى ثورة أو تمرد أو شذوذ .

والمجتمع لا يستطيع أن يقوم بشيء يذكر تجاه تقوية الذكاء . ولكن في بعض البلاد استطاع أن يساعد الأغبياء والمأفونين إلى درجة كبيرة . وحاول أن يجعلهم منذ حداثة سنهم سعداء فيه ، مطمئنين إليه ، وذلك بمعاملتهم اجتماعيا وأخلاقيا تبعا لدرجة الذكاء التي هم عليها ، حتى أن حكومات تلك البلاد فتحت مدارس خاصة للمأفونين .

أما من ناحية البلهاء والمعتوهين ، فالجدال لا يزال قائما . إذ بزغت فكرة يوما من الأيام بمنعهم عن التناسل حتى ينقرضوا . ثم بزغت فكرة أخرى بجمعهم ووضعهم في جهات خاصة بهم ، لا يختلطون فيها إلا أحدهم مع الآخر ، ولا يتزاجون إلا أحدهم من الآخر ، حتى لا ينقلوا ضعف ذكائهم المريع إلى نسل أفراد أسوياء كان يمكن أن يخرجوا للحياة نسلا سويا ، لو تزاجوا مع أسوياء مثلهم .

وكل ما أستطيع قوله هنا إن هذه المشكلة بحاجة إلى دراسة وجيزة ونظر لصالح المجتمع العام .

أما عوامل البيئة التي تعمل على إضعاف الضمير ، فقد ذكرنا عددا منها عند الكلام عن المؤثرات التي تعمل على تقوية النفس الهمجية ، وإعطائها الفرصة للانتصار على الضمير ؛ وأخصها في التدليل ، والقسوة المتناهية ، والتذبذب في المعاملة .

وهناك عوامل أخرى تؤثر في الضمير وتعمل على تفكيك قواه ، وأهمها الخمر والمخدرات . فمن شأن هذه أن تقلل من شعور الإنسان بالضوابط الداخلية لدوافعه الذاتية والهمجية . وبذلك يضعف الضمير أثناء السكر والتخدير . وتجذب الذات الفرصة سانحة لتحقيق رغباتها المكبوتة ، ودوافع النفس الهمجية . ويكون الإنسان في هذه الحالة أشبه بالحيوان الذي لا يهتم سوى إرضاء غرائزه دون اعتبار لأي شيء آخر . ولذلك نجد الخمر أو المخدر مستعداً لأن يقوم بأفطع الآثام ، ويرتكب أشنع الجرائم . فكم من رجل تكون ضميره على أسس قوية متينة ، ثم تعود الخمر والحشيش أو غيرهما من تلك المغيبات والمخدرات ، وإذا بضميره يتفكك بالتدرج ، فيصبح مجرماً يعتدى لدرجة القتل ، ويسرق ، ويغش ، ويزني . ثم هو علاوة على ذلك ، يضرب أسوأ الأمثلة إلى أولاده ، ويهملهم ، ويغريهم بطريقة لا شعورية بأن يمرحوا من غير ضابط ولا زاجر . وبذلك يزداد عدد الجامحين الآثمين المجرمين في المجتمع .

وكذلك يضعف الضمير ويتفكك في عند إصابة الإنسان ببعض الأمراض العقلية مثل مرض « الشيزوفرينيا » Schizophrenia الذي يكون الشخص فيه غير اجتماعي ، شديد الحساسية كثير التشكك والريبة ، ومثل المرض المسمى endemic encephalitis الذي انتشر في أوروبا سنة ١٩١٨ ، ويتسبب عن التهابات في المخ . وقد يحدث نتيجة له أن يسلك المريض خصوصاً إذا كان صغير السن سلوكاً منافياً للأخلاق فيعتدى على الغير ويسرق .

جعل الذات العليا مجرمة :

وعلاوة على ذلك ، فإن الذات العليا أو الضمير عرضة للكثير من الآفات . إنه يُتملق ويُرتشى فضلاً عن أنه يُغزى ويهزم . وهو لذلك قد

يقف جزئيا في بعض الأحيان إلى جانب السلوك المنافي للأخلاق والمجتمع .
فلقد ذكرنا من قبل أن الإنسان أو الذات تميل في بعض الأحيان إلى
أن تقوم بالأشياء الممنوعة التي لا يوافق عليها الضمير طبعاً . ولسكى تنجح
في ذلك ، فإنها تتملق الضمير وتخادعه ، فتعطى تلك الأعمال التي لا يوافق
عليها صفة المشروعية في بعض ظروف خاصة . وبذلك ينخدع الضمير . إذ
يرى أن هذا العمل الذي لا يوافق عليه من حيث المبدأ مشروع واجتماعي
في ظروف خاصة فقط ، فيسمح به للذات في تلك الظروف فقط .

والمثل في ذلك تقبيل الرجل المرأة مهما كانت ، أو المرأة الرجل في
عيد الميلاد تحت شجرة المسلتو . وهي عادة شائعة لدى الغربيين ؛ ومثل لعب
القمار وشرب الخمر في الحفلات الاجتماعية الخيرية ؛ والاستمتاع بالحريات
المختلفة في بعض الأعياد والمواسم مثل عيد الحرية في فرنسا ؛ ومثل شرب
الخمر مع جماعة كلهم يشربونها ، حتى لا يكون الفرد ناشزاً ، وحتى لا يكون
السبب الوحيد لعدم متعتهم ، وغير ذلك .

هذه الاستثناءات الصارخة التي يسمح بها الضمير للذات في بعض الظروف ،
تفتح أول جرح فيه للانحلال . إذ أن الذات وقد ذوقت حلاوة الاستمتاع
برغباتها المكبوتة ، وبشهوة الذات السفلى ، لا تستطيع في بعض الأحيان
أن تنساها أو تهجرها ، بل قد تعاود الاستمتاع بها في الظروف العادية ،
ولو كان في ذلك تعذيب الضمير لها ، وهكذا تتجرأ الذات على الضمير شيئاً
فشيئاً ، وتوسع الجرح الذي شقته فيه قليلاً قليلاً ، حتى تستنزف دمه وحيويته
ونشاطه ؛ فيصيبه الاعمى والعجز ، ويصبح معها متساعجاً ، لأنه أصبح
ضعيفاً منحللاً .

كم تتغير أخلاق بعض الناس نتيجة لتلك الحريات الوقتية التي يسمح
الضمير بها في بعض المناسبات الخاصة . كم تكون بداية سيئة لعادات ضارة

غير أخلاقية ، ولا انحلال في تكوين الضمير الإنسانى القوى .
كم بدء بسببها الإدمان على الخمر ، وتعود الميسر والقمار ، والاستغراق
في حياة بهيمية وضيقة . وكل قضي هذا على صحة بعض الناس ، وأفسد عليهم
استقرارهم بل وحياتهم وحيوة من يلود بهم .

تحالف بين الذات السفلى والذات العليا :

وثمة طريقة أخرى تلجأ إليها الذات السفلى تجاه الضمير لكي تغرر به
للتغاضى عنها والسماح لها بتحقيق دوافعها البهيمية ، وهى أن تستدرجه لعقد
معاهدة وتحالف لاشعورى معها ينص على أن يسمح الضمير لها بأن تحقق
الذات بعض دوافعها ، على شرط أن تدفع الذات ثمنها لذلك ما يطلبه الضمير .
وماذا يطلبه فى سبيل ذلك إلا أن يعاقبها ، ويحقق ميوله السادية القاسية معها ؟
إن قيام هذا التحالف مصدر ضعف تدريجى فى التركيب الخلقى للإنسان .
إذ سرعان ما تستمرى الذات العقاب ، ذتراه شيئاً لا يذكر بجانب استمتاعها
برغباتها ، وقضاء شهوات الذات السفلى . . وبذلك يزداد التحالف مناعة
وقوة ، يرى فيه الضمير استبقاء لقوته وسلطانه ، وإرضاء انزعاجاته السادية ،
وترى الذات السفلى فيه استمتاعاً بشيء من الحرية . أى مخادعة أكبر من هذا ،
وأى انتصار للنفس البهيمية ألمع من هذا الانتصار !! ؟

إن مثل هذا التحالف يشبه التحالف غير المقصود أو التحالف اللاشعورى
— إذا صح أن نسميه بذلك — بين رجال الدين وعصابات تجار المخدرات ...
كلاهما يعضد منع المخدرات . الأولون يعضدون من الناحية الدينية ،
والآخرون يعضدون له كسبهم المادى (١) .

(١) ذلك لأنه لو كانت تجارة المخدرات حرة ، لما ربحت هذه العصابات تلك الأرباح
الباهظة التى نسمع عنها .

لقد رأينا شيئاً من هذا التحالف غير المقصود بين رجال الدين ورجال العصابات في أمريكا عند ما سُنَّ قانون منع المسكرات . كلاهما كان يعضد القانون : الأولون يستندون إلى أحكام الدين ، ورجال العصابات يستندون إلى الرشوة يقدمونها للمتنفذين ، حتى يبقوا على هذا القانون الذي يدر عليهم كبر ربح وأعظم كسب مادي .

ونجد مثلاً لهذا التحالف أيضاً في بعض المتعصبين من الناحية الدينية . إذ نجدهم مليئين بالحق والشر والضعيفة والشراسة ، ضد الناس الذين يفوقونهم في العلم أو في كسب رضا المجتمع واحترامه . إن الحق والشر والضعيفة والشراسة مظاهر دوافع الذات السفلى ، ومظاهر الرغبات الذاتية . فكأن ضمير مثل هذا الشخص قد سمح للذات السفلى بأن تتمتع بشيء من الحرية ، مقابل أن يفرض سلطانه على الذات في أن تؤدي الفرائض ، وتمتنع عن إرضاء بعض الشهوات الأخرى ، وتعيش عيشة فيها شيء من الزهد والتقشف والعزلة . إن التكوين الديني لمثل هذا الشخص تكوين سقيم معتل .

الضمير المجرم :

وعلاوة على ذلك فقد يكون الضمير المتسكون في الإنسان ، ضميراً منحللاً مجزئاً في أصوله وجذوره . عند ما تشاء ظروف الحياة القاسية ، أن تجعل الطفل ينشأ مع أبوين منحلين أو مجرمين ، يتمثل منهما مثلها الوضيعة . وبذلك ينشأ الطفل جامحاً غير اجتماعي وغير أخلاقي ، ويصبح مجرماً خطيراً مفسداً للمجتمع .

لقد سنت بعض البلاد قوانين تسمح بانتشال الأطفال من أحضان والدين منغمسين في الإجرام ، ووضعهم في مؤسسات تربوية ، يتمثلون فيها المثل الصالحة التي يمكن أن تطفئ على المثل الوضيعة التي أشربوها في منازلهم

من قبل . وبذلك ينشأون نشأة سوية اجتماعية أخلاقية .
ويجب أن أذكر أن في جميع الحالات السابقة التي تهرب الذات فيها من
من الذات العليا ، أو ينهزم الضمير فيها أمام دوافع الذات السفلى والرغبات
الذاتية ، نلمس أن زعزعة الشعور الداخلي لدى المرء بالعدالة ، يلعب دوراً
كبيراً في ذلك .

فإذا لم يكن هناك جزاء طيب للسلوك الصالح الذي تقوم به الذات ، أو
إذا وقع على الإنسان عقاب قاس لا يتناسب مطلقاً مع خطيئته وذنبه ؛ أو
بمعنى آخر ، إذا لم تكن هناك عدالة داخلية ، وإحساس بتوازن وتعادل
بين سلوك الذات ومعاملة المتنفيذين في الإنسان له على هذا السلوك ، تشور
الذات ضد الضمير ، فإن بدا لها متسامحاً ليناً ابتلعتته ، وجرفته معها النفس
البهيمية . وإن بدا لها ظالماً قاسياً ، تمردت عليه ، ووقفت أمامه موقف
عناد وتحدي .

وقد يكون تزعزع الشعور بالعدالة الداخلية هذا ناتجاً عن أسباب
بيولوجية مثل المرض المزمن ، أو ضعف الجسم أو العاهة . ففي هذه الحالات
يشعر بعض الناس أن الحياة ممثلة في المسيطرين عليهم ، من والدين ومربين
وحكام ، بل وقوى روحية ، حياة ظالمة ، وأن المقاييس والمعايير والمستويات
التي وضعت للناس ، لا يمكن أن تنطبق عليهم . إنهم يشعرون شعور الشخص
الذي وقع عليه عقاب دون مبرر . ولذلك يعطون لأنفسهم شيئاً من الحرية ؛
بل يستشعرون أن من حقهم أن ينعموا بميزات خاصة في الحياة .

إن هؤلاء يتطلبون ولا شك معاملة متبصرة صبورة خاصة ، تبث فيهم
الشعور بالعدالة الداخلية من أول الحياة حتى يسيروا في ركابها سيرا متوافقاً
معيها ، منسجماً مع مجتمعاتها وقوانينها وأنظمتها .

وقد يتأثر الشعور الداخلى بالعدالة بمؤثرات اجتماعية واقتصادية ، مثل الفقر المدقع ، والتعطل ، وفساد الحكام المتنفذين ، وغير ذلك ، مما يجعل الذات تمور بعنف ضد الضمير ، إذ ترى فيه حاكماً ظالماً قاسياً . وقد تنعكس هذه الثورة الداخلية على المجتمع كله ، وربما كان هذا من أهم أسباب التمرد والثورات في المجتمعات .

ويمكن أن نلخص هذه المؤثرات فيما يأتى :

١ - عدم مكافأة الإنسان على سلوكه الطيب وفضائله وصلاحه ، وقد أشرنا إلى ذلك فى حالة الطفل الذى يعبس أبوه دائماً فى وجهه ، مهما سلك السلوك الذى يرضيه .

وكذلك الزوج الصالح الذى لا يقابل زوجه بإخلاصه بإخلاص ، أو الذى قد يسيء زوجه الظن به فيتهمه اتهامات باطلة ، إن هذا قد يثير فيه ثورة على الحياة الزوجية ومقاييسها ، وتمرداً من قبل الذات على الضمير . وفعلاً يبدأ المرء يسلك سلوكاً منافياً لما كان يسلكه من قبل .

٢ - المقاساة والتألم المبالغ فيه : إن هذا قد يمحى الشعور بالذنب الذى قد يستشعره المرء ، فتبدأ الذات بالثورة على الضمير . والمثل فى ذلك الفقر ، والمرض المستمر وغير ذلك . وكذلك عقاب الأب الطفل عقاباً صارماً على كل إثم بسيط ، أو مؤاخذة الزوج زوجه ، أو الرئيس مرؤوسه مؤاخذة قاسية كلها أخطاء خطأ بسيطاً ، وهكذا .

٣ - أن ينال بعض الناس جزاءاً طيباً عن غير استحقاق . والمثل فى ذلك المحسوبيات الكثيرة التى ينعم بها موظفون عن غير جدارة .

٤ - التسامح مع المذنبين والمجرمين ، وعدم مؤاخذتهم على ما يرتكبون من آثام وذنوب ، مما يضعف موقف الضمير وسلطانه ، ويجعل الذات ترى فيه قوة صورية ، وإذا بها تهزأ به ، أو تتمرد عليه .

٥ - إهمال التقاليد ، والقوانين الاجتماعية ، والنظم ، والمعايير الخلقية ، في بعض الظروف الخاصة ؛ في الحروب مثلاً أو الثورات . إذ تشعر الذات أنها تقاسى كثيراً . أو أن أمامها طريقاً شاقاً مضنياً يجب أن تسير فيه ، فيمضى بذلك الشعور بالذنب وتتغلب الذات السفلى على الضمير . بل وكأن الضمير قد أسقط على الشعب المحارب أو الثائر ، فأصبح يستمد قوته ومقاييسه منه . وبذلك يستحل بعض الناس لأنفسهم ، أن يرتكبوا كل خطيئة من سرقة وقتل ورشوة وغير ذلك .

وبالرغم من ذلك نجد أن بعض الناس ، حتى في هذه الظروف التي شرحتها لا يزالون مستمسكين بضمائرهم ، مهتدين على هديها وأنوارها . هؤلاء هم الذين نشأوا نشأة طيبة كونت فيهم ضمائر قوية منسجمة العناصر ، متحدة المقاصد ، لا تستطيع الذات والذات السفلى أن تجد سبيلاً لإرشائها أو خداعها أو النسل إليها .

بقيت نقطة أخرى سبق لي في المحاضرة الثانية أن نوهت بها : وهي الصراعات التي قد تنشأ في الذات المثلى ، نتيجة لعوامل ذكرتها ، ومنها أن الإنسان قد يتمثل من والديه مثلاً ، فإذا ما تغلغل في الحياة الاجتماعية ، فإنه قد يتمثل منها مثلاً تخالف الأولى ، فيحدث صراع بينها يتوقف نتيجته على قوة تركيب المثل الأولى .

نشهد هذا بشكل واضح محدود في بعض الشباب الذين قد يدخل في

ذاتهم المثلى ، وخصوصا فى دور البلوغ والشباب ، عناصر جديدة مشتقة من أشخاص معينين . فقد يبدأ الفتى يتخذ مثلا له قى آخر أو رجلا كثير الاعتداء أو يشرب الخمر ، فإذا به يفعل مثله . وقد يضطره هذا للسرقه أيضا وللسبب نفسه قد تضطر الفتاة إلى اختلاس الملابس أو أدوات الزينة ، أو النقود التى تستطيع أن تحصل بها على ذلك ، حتى تظهر فاتنة جذابة مثل الفتيات اللواتى اتخذتهن مثلا لها . ويتبين من هذا أن عاملا جديدا نشأ من المجتمع ، وتمثله الإنسان ، فأضعف من تكوين ضميره .

ولكننى أريد أن أشير هنا إلى ما هو أهم من ذلك وأعم ، وخصوصا فى هذا العهد الدقيق الذى يمر الشرق به اليوم ، والذى يضطرب العالم فيه اضطرابا عنيفا شديدا .

فلقد بدأت بعض الأبصار ترفو إلى مجتمعات غير هذا المجتمع ، ويتخذ بعض الناس مثلا من تقاليد وأنظمة ومعايير غير التقاليد والأنظمة والمعايير السائدة .

إن فى هذا شيئا من الحق ولكن ليس فيه الحق كله .

إن من واجبنا حقا أن نستفيد من خبرات الغير ، ومن معلوماتهم . ولكن أن ننظر اليهم مثلا أعلى ، وهم زاحرون بالمساوى والنقائص ، ثم نتمثل هذا المثل ليتصارع مع مثلنا السابقة — إن فى قيامنا بذلك هدمًا وقلقا وترنحا لنا أفرادا ومجتمعات ، وفيه تهديد لآمننا النفسى ، وزعزعة لتكويننا الخلقى ، وانزلاق إلى الهاوية ؛ لأن هذا الصراع قد يودى إلى تغلب دوافع الذات السفلى فىنا ، وجرف نفوسنا الشهوانية لنا ، وبذلك نجلب على أنفسنا الشقاء .

خذوا مثلا مشكلة الزواج الآن فى الشرق ، خصوصا بين الطبقات المثقفة .

لقد سبق لى أن أشرت إلى هذا النظام الاجتماعى لأننا نعهده من الناحية النفسية أهم الأنظمة ، إذ فى رحابه تتكون الأفراد ، وفى دائرته توضع جميع الأسس لكل بنية اجتماعى .

هل تريدون أن تتمثل فى الحياة الزوجية مثل المجتمعات الأخرى بحملتها بما فيها من خير وشر ؟ أليس الأفضل أن تتمثل منها خيرها بالتدريج ، وما يتفق منها مع الحياة السكرية وأهداف الزواج ؟

لقد بدأت بعض المجتمعات تن من الفوضى الضاربة أطناها فى حياتهم الزوجية . . ويكفى أن أذكر أن الزواج الحديث فى أمريكا مثلاً زواج فاشل ، وأن الإحصائيات فى السنوات الأخيرة كشفت عن أمر أزعج الأخلاقيين ورجال الإصلاح ؛ فإن أكثر من ٦٠ ٪ من الزيجات السنوية الحديثة تنتهى إلى طلاق .

لماذا نشور ضد تقاليدنا كلها ، ونرى فى تقاليد الغير وأنظمتهم كل خير ، بينما هم يقنون منها ويشورون عليها ؟ أنفسى أن المفاسد والثورات والحروب تصدر عن تلك المجتمعات التى نرى إليها مثلاً أعلى للعادات والأخلاق والنظم ؟ وماذا تعنى هذه الثورات والحروب لإفساد الضمائر ، وتهتك الأخلاق ، وانحطاط الروابط والصلات ؟

إنى أنقل كلمة عن العالم النفسى السويسرى كارل يونج Karl Jung^(١) وهو رجل اتصل بحكم مهنته محللاً نفسياً بألوان وأشكال مختلفة من الناس ، من مجتمعات وبيئات كثيرة متباينة ، فأصبح لديه ذخيرة من خبرات بالإنسان والإنسانية قلما تجمعت لشخص غيره .

(١) كارل يونج منشئ مدرسة علم النفس التحليلي Analytical Psychology

يقول يونج في كتابه « الرجل الحديث يبحث عن روح »^(١).

« ليس عجيبا في رأي أن يحدد الرجل الحديث (العصرى) عقيدته في الحياة الروحية ، وأن يلتمس فيها تلك الثقة التي تنكرها عليه الحياة .

« ولكن العالم الغربي الآن في موقف خطر من الناحية الروحية . . وكلما عمينا عن أن نبصر الحق القاسى بأن ننظر إلى تلك الأوهام التي نتوهمها عن جمال الروح ، زاد الموقف خطراً . . إن الرجل الغربي يحرق البخور لنفسه وقد أصبح وجهه مخفيا عنه في دخان البخور . ولكن كيف يرانا غيرنا من الناس من ألوان أخرى ؟ ماذا تعتقد الصين والهند فينا ؟ أى مشاعر تثيرها في الرجل الأسود ؟ وما فكرة جميع أولئك الذين نسلبهم أوطانهم ، ثم نفنيهم بالجر والامراض السرية ؟

« إن لى صديقا من الهنود الجر ، هو حاكم لمحلة . . كنا نتكلم معا بصراحة عن الرجل الأبيض ، فقال لى (نحن لانفهم البيض . إنهم دائما بحاجة إلى شيء . . دائما فى قلق . . دائما يترقبون شيئا . ماهو ؟ نحن لا نعرف . نحن عاجزون عن أن نفهمهم . . إن لهم أنوفا دقيقة ، وشفاه قاسية رقيقة ، وفى وجوههم خطوط كثيرة . . إننا نعتقد أنهم جميعا مجانين .)

« لقد رأى صديق فى الرجل الأبيض ، الطائر الآرى المتعطش دائما للافتراس فى كل مكان . . حتى فى البلاد التي لاتتصل به بأية صلة .

« هذا هو منظر الأوروبي إذا ما أخرج من سحب بخوره الخلقية . . . فلا عجب إذا أردنا أن نستخرج أجزاء الحياة الروحية الدفينة . . أن ننزع أولا المستنقع المنتن . . هذه هى بداية علم النفس عندنا .

(١) W. S. Dell & Cary F. Baynes ترجمة Modern Man in Search of a Soul

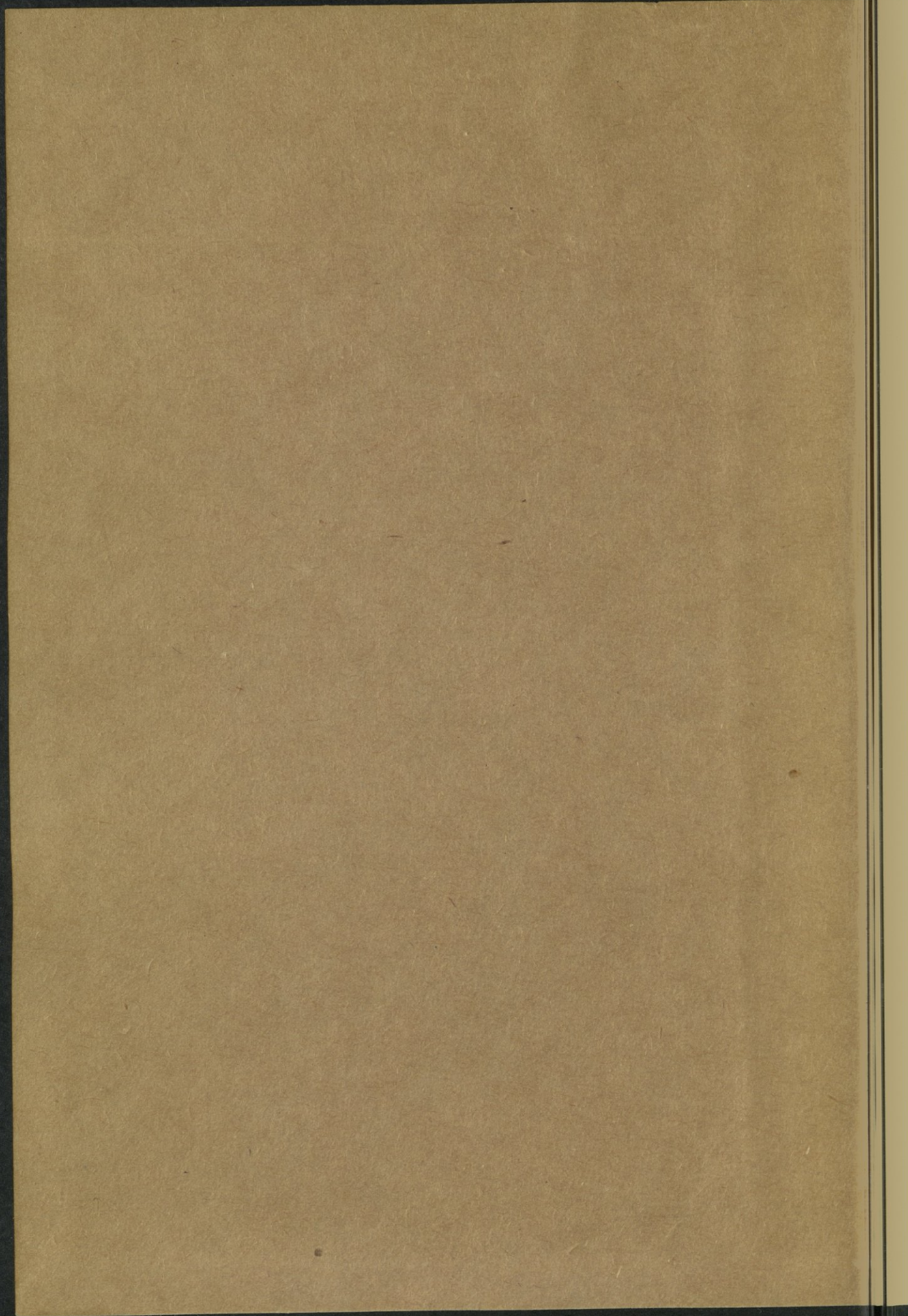
من صفحة ٢٤٥ إلى صفحة ٢٤٧ من الطبعة السادسة سنة ١٩٤١ .

مطبوعات المؤلف

- (١) تربية الطفل ومبادئ علم النفس :
بالاشتراك مع إملى عبد المسيح وبهيجه بيومي والدكتور احمد شاهين الناشر دار المعارف
- (٢) التحليل النفسي للأطفال :
ترجمة عن الانكليزية : المؤلفة أنافرويد الناشر مكتبة النهضة
- (٣) اختيار الزمالك للذكاء :
الناشر لجنة التأليف والترجمة والنشر
- (٤) مقياس ستانفورد - بينيه للذكاء : بالغة العامية العراقية دار المعلمين العالية بغداد
- (٥) المشاهدة في مبادئ العلوم :
بالاشتراك مع أحمد محمود طنطاوى وسامى زيتون الناشر دار المعارف
- (٦) مبادئ العلوم :
بالاشتراك مع أحمد محمود طنطاوى الناشر دار المعارف
- (٧) تابع الشيطان : ترجمة عن الانكليزية : المؤلف جورج برنارد شو الناشر مكتبة النهضة
- (٨) سيكولوجية الضمير :
الناشر دار الفكر العربى

تحت الطبع

- (١) موضوعات نفسية
- (٢) دوافع السلوك



153.72
N15A
C1